فيك
وجدت ضالّتي

بسم الله الرحمن الرحيم

رواية

فيك وجدت ضالّتي

بقلم شهد الإيمان آل ترك

دار المكتبي

الطبعة الأولى
2020 - 1441

محفوظة
جميع الحقوق

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email: almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

زهرة

وكعادتها تطل من خلف السحاب كعروس حيية يوم عرسها إذا رُفع عن وجهها ذلك الستر الذي يخبئ الحسن الأخاذ ، فتحمر وجنتاها خجلاً عندما تبصر في عينيه الشوق واللهفة لتلك اللحظة التي طال انتظاره لها ، وتتهلل أسارير السماء وتأذن للأرض بتلك السلاسل الذهبية أن تتساقط عليها لتعلن عن بدء يوم جديد .

(مايو ٢٠٠٩م)

هي وحيدة لأمها وأبيها ، ليست وحيدة فقط في كونها ليس لها أخوات ، ولكنها أيضاً وحيدة في عالمها الذي تعيشه ، فلها طباع مختلفة وميول مختلفة ، وجدت نفسها وحيدة رغماً عنها ، لا أحد يشبهها منذ صغرها ، فتفننت في تزيين تلك العزلة كي تستمتع بين أرجائها ، ومنعت أي دخيل من اقتحام عالمها ، كانت مواهبها متعددة تقطف من كل بستان « زهرة » .

سئمت من وحدتها فظلت تبحث عمّن يبدد سآمتها ، فظنت أنها إن وجدت صديقة مخلصة تكون لها أختاً فستتخلص من وحدتها ، مرت السنوات وتخبطت في اختيار تلك الصديقة التي تبحث عنها ،

وفي كل مرة تظن أنها قد وجدتها . . تفجع بالفراق ، حتى وصلت للفرقة الجامعية الثانية ، فتعرفت في مسجد الكلية على زميلة رفيقة ، وللعجيب أنها كانت تشبهها شكلاً أيضاً ، كانت تلك الفتاة تراقبها دائماً بنظرات الأخت الحانية عندما تجدها مع فلانة أو علانة ، فمشاعر زهرة الرقراقة ملفتة للجميع ، وتمنت في داخلها لو تكون صديقة مقربة منها .

وكان ما تمّنته ، كانت تلك الفتاة في تلك الفترة تعاني من مشكلة وجدت في « زهرة » عزاءها عما ألمّ بها فشاركتها معاناتها ، كانت صداقتهما تزداد يوماً بعد يوم .

تعلقت زهرة بها جم التعلق ؛ فـ (بيان) من حفظة كتاب الله ، وأنعم الله عليها بالصوت العذب في القرآن والإنشاد ، وبذلك قد شابهت زهرة في أولى مواهبها ، وكذلك بطيبة القلب ، هي خجولة كزهرة يزيّنها حجابها الشرعي الساتر الفضفاض .

شعرت معها بالدفء الأخوي الذي كانت تفتقده ، كما كانت عوناً لها على طاعة الله ، لمدة عام كان من أسعد سنوات عمرها ، غاب فيه عنها إحساس الوحدة هذا تماماً ، ولكن هاجساً كان يطاردها ويطفئ بريق الراحة في قلبها . . هاجساً يتوعدها بشيء آتٍ سيسرق منها سعادتها .

وكان ما كانت تخشاه ، وجدت زهرة تغيراً فيها مذ تجاوزت محنتها ، وكلما مر الوقت زاد الجفاء ، حتى وصل ذروته في هذا اليوم !

ـ غداً إن شاء الله خطبتي ، شاب خلوق حسن السمعة ، تمت الأمور سريعاً .

قالت بيان جملتها وهي تعبث بإحدى كتبها ، وبجوارها تجلس زهرة واجمة ، تسرق نظرات على الطريق الذي سلكته الحافلة التي ركبتا معاً فيها منذ قليل .

وقع الخبر عليها فاغتمّت . . هكذا إذاً !! ، لقد تلقّت الخبر كما الغريبة !! عادت لبيتها ولا تكاد ترى أمامها من الهم الذي وقع بقلبها ، تزاحمت الأفكار في رأسها حتى أنها ربما لم تسمع كلمات والدتها التي قالتها منذ قليل فور عودتها متمتمة :

« لماذا يا صديقتي ؟ ماذا حلّ بأواصر الأخوة التي كانت بيننا ؟ »

ألقت بحقيبتها وكتبها على مكتبها بعدما أغلقت باب الحجرة ، وبدلت ثيابها ثم ألقت بجسدها الضعيف على فراشها الذي كان هو الحاضن لجميع أوجاعها ، احتضنت وسادتها فبدت في وضع الجنين ، غطت وجهها بلحافها ، وأخذت تبكي ، فتراكمت الأفكار

المؤلمة في رأسها والنهاية التي طالما مرت بها سابقاً تتبلور أمام عينيها من جديد .

ـ إنه الفراق ، أجل! النهاية المتوقعة لكل صداقاتي السابقة ، وها أنتِ يا بيان تكررين النهاية نفسها ، آه يا قلبي مما تلاقي ، هل سترجع وحيداً مرة أخرى ، هل ستطيق هذا أم تعلن رفضك لذاك الجرح الجديد ؟ **لماذا غداً الفراق أوفاكن جميعاً لي ؟**

وباتت تكره هؤلاء الرجال الذين اقتحموا قلب كل من صادقتهن مذ التحقت بالجامعة فأفسدوا عليها تلك الصداقات التي كانت في حاجة ماسة لها ، امتعض وجهها ، وتاهت ملامحها في وسادتها التي لو نطقت لواستها وشدت من أزرها ، تستعد لاستقبال وحدتها من جديد . مرت الليلة ثقيلة وقد جثم الحزن على قلبها ، تبكي وحدها ، لا يشعر بها أحد ولا يراها سوى ذلك القمر الذي أطل من نافذتها الشبه المغلقة على استحياء .

في اليوم التالي ، استيقظت لصلاة الفجر ، فشعرت بدوار خفيف تجاهلته وتماسكت ، وقفت تصلي وقلبها ما زال يئن ، وقفت وبثت شكواها لله ، فوحده المطلع على معاناتها ، أنهت الصلاة وعادت لتنام أو عادت لأوجاعها التي حتماً ستتكالب عليها فور وضعها لرأسها على الوسادة .

مضت الليلة وهي تحترق في صمت على صديقتها التي حتماً ستغيب عن ساحتها بعد أن رزقها الله الزوج الذي تمنته ، فهذه عادة أغلب الفتيات بعد خطبتهن ، ينشغلن عن الأصحاب والأحباب ، ويتفرغن لخطّابهن ويعشن في الأحلام الوردية ، رغم أنه لا علاقة بين هذه وتلك ! كانت هائمة ، فقدت شعورها بمن حولها ، يتحدث معها أحدهم فلا تتجاوز كلماته شحمة أذنيها ، يضايقها أخوها الأصغر كعادته فتتوه مضايقته وسط حزنها ولا تجيب ، ظاهر الأمر أنه بسيط لا يستحق ، لكن ألم تقسم القشة ظهر البعير ؟!

* * *

ـ زهرة ، يا زهرة ! استيقظي يا بنتي ، لقد تأخرتِ في نومك استيقظي هيا .

قالت أم زهرة كلماتها وهي تزيح الستار عن النافذة التي تتوسط الحائط المقابل لفراش ابنتها ، تلك الحجرة التي لم يدخلها أحد إلا وأعجب بلمسات زهرة فيها ، بها فراش كبير يقابله نافذة تطل منها الشمس عند الصباح ، والقمر عند المساء ، ومكتب متوسط الحجم به خزانة ودرج ، كما تحوي الغرفة خزانة صغيرة مستقلة تضع فيها ملابسها ، أما الحائط فقد زينته بمناظر طبيعية وصور للكعبة المشرفة .

قالت زهرة في ملل :

ـ وكم الساعة الآن يا أمي ؟

ـ الساعة اقتربت من التاسعة ، وهاتفك لم يكل ولم يمل من الرنين .

تمطعت قائلة :

ـ لا بدّ وأنها « ولاء »، لقد اتفقنا على الذهاب معاً إلى الجامعة .

ـ حسناً إذاً ، هيا قومي لتتناولي فطورك قبل المغادرة .

ـ لا ، لا ، لقد تأخرت ، بالكاد أجهز نفسي وأنصرف ، فلست مستعدة للذهاب بمفردي اليوم أيضاً .

أنزلت قدميها إلى الأرض ، ثم تنهدت بعمق واستعدت للقيام ، بينما تركتها والدتها وعادت إلى المطبخ لتعد طعام الفطور لباقي أفراد الأسرة .

ـ يا إلهي ، ليس مجدداً !

لقد عاودتها الحالة نفسها التي شعرت بها حينما قامت لصلاة الفجر ، شعرت بألم في مفصل قدميها ، وبرعشة كلما همت بالوقوف ، فتستأنف الجلوس من جديد ، وبدا التوتر عليها ، استجمعت قواها ، تحركت على مهل وتوجهت لتغسل وجهها في

صمت ، ثم عادت إلى حجرتها فبدلت ملابس البيت ، وارتدت عباءتها وخمارها وقد تعكر صفو مزاجها بسبب ما تشعر به ، وضعت كتبها في حقيبتها ولحقت بولاء في موقف الحافلات .

* * *

ولاء فتاة ملتزمة ، ترتدي ملابس أنيقة ومحتشمة تنم عن نشأتها المرفهة نوعاً ما ، تضع غطاء رأس يستر جيدها ، تعرفت عليها في السنة الجامعية الأولى فتقربت منها ونشأ بينهما صداقة طيبة ، تختلف عن زهرة في كونها شخصية عاقلة ، تحسب لكل شيء حسابه ، لا تسمح لعاطفتها أن تتحكم فيها ، تزن الأمور جيداً ، لذلك كانت تختلف مع زهرة كثيراً !

ـ السلام عليكم يا ولاء ، معذرة أختاه على التأخير فقد كنت أسير على مهل ، فقدماي تؤلماني قليلاً . . .

ـ لا عليك حبيبتي ، فما زال أمامنا متسع من الوقت ، سلامتك وسلامة قدمك ، ماذا بها ؟

ـ يبدو أنها كشفت ليلاً فأصابها برد .

ـ لا بأس ! طهور إن شاء الله ، انتبهي فيما بعد .

ثم أمسكت بيدها لتساعدها على ركوب الحافلة ، فصعدت على مهل تستند على المقعد الأمامي الذي ستجلس عليه .

انطلقت الحافلة حيث مدينة الجامعة « المدينة الجديدة » ، وعند النزول كان الألم يشتد ، فأصبحت تسير بصعوبة .

ـ يبدو أنها تؤلمك بشدة .

ـ أجل ، بل إن الألم يزيد كلما مشيت أكثر .

ـ إذاً فلنسر بهدوء .

وبعد الانتهاء من المحاضرة ذهبت لمسجد الكلية لتصلي الظهر ، فصلت ثم جلست خارجه على الدرج تنتظر ولاء وسارة ووجهها شاحب ، شعرت بقدوم صديقتها العروس تسبقها التهاني على الخطبة ، حتى وصلت أمام المسجد ووجدت زهرة عنده ، نظرت لها نظرة حانية ، ثم جلست بجوارها كأنها تعزيها على تلك الصداقة الفائتة :

ـ كيف حالك يا زهرة ؟

ـ الحمد لله ، مبارك الخطبة يا بيان . . . (قالتها بهمّ لم تلاحظه صاحبتها) .

ـ بارك الله فيك أختاه ، تمنيت لو كنتِ معي تشاركينني فرحتي .

ـ وأنا أيضاً، ولكن قدّر الله وما شاء فعل ، علّه كان يوماً سعيداً.

ـ أجل ، لم ينقصه سواكِ .

ـ أسعدك الله دائماً .

ـ اللهم آمين ! ورزقك الزوج الصالح .

تركتها ودخلت المسجد منشغلة بسعادتها ، فانصرفت زهرة عائدة إلى بيتها منشغلة بوحدتها !

* * *

في مساء اليوم التالي رافقتها والدتها وذهبتا إلى الطبيب بعدما زاد ألمها وعجزت عن الحركة إلا بمشقة ، وبعد أن رجعت اتجهت إلى عالمها الخاص الكائن في غرفتها ، لم تضئ المصباح ، فلم يعد لديها رغبة في رؤية النور الذي لم يتسلل على أية حال إلى قلبها الحزين ، جلست كما اعتادت على الأرض في زاوية بين فراشها وخزانة ملابسها واسترجعت كلمات الطبيب :

ـ اسمعيني يا بنتي ! أنتِ ما زلت صغيرة ، والحياة أمامك طويلة ، وحتماً ستمرين بمواقف كثيرة مؤلمة ، لا بدّ وأن تكوني أقوى من ذلك لتواجهي هذه الحياة .

ثم أسند ظهره على كرسيه وأشار بيديه كأنه يمسك شيئاً بينهما وأردف قائلاً :

ـ البالون كلما دخله هواء انتفخ ، وله كمية محدودة من الهواء يمكنه تحملها ، لو زادت هذه الكمية سينفجر ، أليس كذلك ؟

ـ أجل .

ـ وأنتِ كالبالون لو حملتِ نفسك فوق طاقتها ستنفجرين ، ليس هناك ما يستحق أن تتعبي نفسك من أجله ، تجاهلي ما يؤلمك ، لأنك إن لم تفعلي ، ستكونين وحدك الخاسرة .

احتضنت زهرة قدميها بعد أن ألصقتهما بصدرها وخبأت رأسها أو دفنته كما تفعل النعامة ظناً منها أنها بهذا قد انفصلت عن عالمها الخارجي ؛ لتغوص في أعماق ذاكرتها المكلومة ، وتسافر عبر الزمان للماضي . . وكانت الدموع هي تأشيرة السفر التي حلقت بها إلى هناك ، حيث كانت في المرحلة الإعدادية !

نهلة

(سبتمبر ٢٠٠١ م)

دق جرس المدرسة واصطفت الطالبات ليبدأ طابور الصباح ، إنه اليوم الأول في العام الدراسي ، لا واحدة منهن تعرف مكاناً محدداً لها في الطابور ، فوقفت تنتظر مصيرها وفي أي فصل ستنتمي هذه السنة ومن ستكون بجوارها .

ـ فصل (٢/ ٣)

وأخذ صوت المدرس في المذياع يردد أسماء الفتيات اللواتي

سيضمّهن الفصل المذكور ، والتي كانت من بينهن « زهرة حازم طارق » .

ـ لقد عرفتُ فصلي أخيراً ، ولم يتبقَّ سوى ذلك الحمل الثقيل و . . الجلوس في مقعد مناسب بجوار فتاتين جيدتين .

حملت حقيبتها وتوجهت نحو الدرج الموصل للفصل المذكور .

ـ السلام عليكم . . .

قالتها في خجل لتلك الفتاة التي تجلس في المقعد الثالث بمفردها ، ثم أردفت :

ـ هل يمكنني الجلوس بجانبك يا . . . ؟

ابتسمت الفتاة وأكملت لزهرة جملتها وقالت :

ـ ربى ، اسمي ربى ، وأنتِ ؟

ـ أنا زهرة ، تشرفت بك يا ربى .

وبالفعل سمحت لها ربى بالجلوس معها ، فابتسمت وقد انزاح عن صدرها ذلك الحمل الثقيل الذي استهلك من قواها ما لا يستهان به من مجهود ذهني وعصبي .

عادت إلى البيت مسرورة بعد انتهاء اليوم الدراسي ، ما أن وصلت حتى دخلت على أمها حيث مكانها المقدس ـ المطبخ بالطبع ـ

فسحبت كرسي الطعام وجلست عليه ، ثم خلعت تلك الحقيبة السمجة التي لا يناسب ثقلها أبداً جسدها الصغير ، وظلت تقصّ على والدتها أحداث اليوم الأول ، بينما كانت والدتها تقف أمام الحوض تعطي الأطباق المتسخة درساً مؤلماً في النظافة ، ربما تنبري الأطباق يوماً ما بين تلك اليد المحاربة ! .

الأم امرأة طيبة في منتصف العقد الثالث من عمرها ، ربة منزل من الدرجة الأولى ، تضع دائماً إيشارباً على شعرها ولا يفارقها إلا للضرورة القصوى ـ عند النوم مثلاً ـ ترتدي نظارة طبية تظهر عينيها الخضراوين اللتين أورثتهما لابنتها ، وملامحها تكشف عن جمالٍ في شبابها لم تستطع السنون إخماده ، تختلف اختلافاً كبيراً عن ابنتها ، فهي جادة رغم طيب قلبها ، اجتماعية ، متحدثة . . بينما ابنتها انطوائية ، كثيرة الصمت ، فخلّف ذلك الاختلاف صداماً بينهما . ورثت زهرة الكثير من والدها لا شكّ !

وأثناء حديثها عاد أخوها الأصغر وسيم الذي يصغرها بخمس سنوات ، إنها لا تتقبل منه أي فعل أو قول ؛ فهو رغم وسامته إلا أنه مشاغب جداً ، هناك سبب آخر لموقفها منه ، ألا وهو كونه ولداً وليس بنتاً ، فهي كانت تتمنى أختاً لها ولكن الله قدّره صبياً ، فقُضي على حلمها أن تكون لها أخت تصاحبها إلى الأبد ، وها قد عاد هو الآخر من مدرسته ، وثيابه تشتكي من كم التراب الذي تحمله ،

والذي ما هو إلا برهان على مغامرات قضاها مع رفقائه في المدرسة . وبعد شدٍّ وجذب بينهما أنهته والدتها بحزم ؛ عادت إلى حجرتها لتبدل ملابسها وهي تشتاط في داخلها من أخيها . . ليته كان بنتاً !

* * *

حضر الحاج حازم ، وأعدت أم زهرة الطعام على المائدة وجلس الجميع حولها . . الحاج حازم رجل اقترب من منتصف العقد الرابع من عمره ، ذو ملامح أوروبية ، أورث ملامحه تلك لابنه الأصغر ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، ممتلئ الجسد نسبياً ، ويعشق الصمت .

جلس ، فصمت الجميع ، الكل يهابه ، تكلم برزانة تامة متوجهاً نحو زهرة :

ـ ها ؟! كيف كان يومكِ ؟

ـ الحمد لله ، مرّ على خير .

ـ جيد ، اجتهدي هذا العام ولا تهدري وقتك ، نريد مجموعاً مرتفعاً .

وتتكرر العبارات المعتادة :

« اجتهدي في دروسك لتصبحي طبيبة أو مهندسة ، ولكي أضع قدماً على الأخرى وأنا أنتقي عريساً مناسباً لابنتي الطبيبة أو المهندسة ، أما إن لم تتفوّقي كيف لي أن أشترط صهراً ذا مكانة وأنت لستِ ذات مكانة ؟ الخيار لكِ » .

لم تعتد على تلك الكلمات رغم أنها لا تنقطع عنها ، تزعجها جداً ، تناولت غداءها في ملل ثم عادت إلى غرفتها وجلست على مكتبها الخاص تستذكر دروسها بعد تلك الشحنة المحبطة . . مهلاً ! وهل تبقى لديها دافع لتفعل ما يسمى المذاكرة ؟ انفعلت منفردة ، ولم تجد سوى الورقة والقلم لتفرغ عليهما شحنتها ، فأخذت تشوه ملامح تلك الورقة البيضاء أكثر فأكثر ، بدون رأفة .

« ما هذا التبكيت ؟ يا فرحة لم تكتمل ، متى سيزاح هذا العبء من على كاهلي يا ربي ؟ ما المانع لو تفوقت في مجال آخر أحبه ؟

رفقاً بنا أيها الآباء ! فلا يعقل أن تتحول فتياتكن كلهن إلى طبيبات أو مهندسات وفقاً لطموحاتكم ، أي منطق هذا الذي يجعلكم لا تتصورن بناتكم إلا في الأولى أو الثانية ؟! »

* * *

في الأسبوع الثاني كان لفتاة ثالثة نصيب في مقعدها هي وربى ، « نهلة » فتاة خفيفة الروح ، قمحية البشرة ، لا تفارق الابتسامة

وجهها ، فكنّ ثلاثياً رائعاً لحقت به « سمية » التي تجلس في نهاية الصف .

تختلف شخصية نهلة عن زهرة كثيراً لكنها كانت اجتماعية ومرحة جداً ، فتقربت منها زهرة لتكتسب منها تلك الصفات ؛ إذ طالما خجلها يحول بينها وبين الناس وآن الأوان لتتخلص منه .

كانت نهلة متفوقة في مادة الرياضيات ، فكانت ترجع إليها زهرة كلما استغلقت عليها مسألة ما . وفي يوم طلبت منها أن تطلعها على طريقة إجابتها عن سؤال حاولت فك شفرته دون فائدة . وعند بداية الفسحة ، سألتها :

ـ نهلة ! هل أحضرتِ الدفتر الذي طلبته منك ؟

قالت نهلة وهي تستعد للخروج من الفصل :

ـ أجل ! افتحي حقيبتي وخذيه منها ، الدفتر لونه وردي !

ـ حسناً ، لا تتأخري فلربما أحتاجك في توضيح إحدى الخطوات .

ـ حاضرة ، لا تقلقي لن أتأخر ، وإن تأخرت ما عليكِ سوى فرك الدفتر وستجدينني أمامك في الحال ، (وتبتسم) .

ـ إذاً انصرفي الآن وسأستدعيكِ وقت حاجتي .

ـ حسناً ، سلام .

غادرت الأولى الفصل بعدما استعجلتها ربى ، وقامت الثانية بفتح الحقيبة بحثاً عن الدفتر المطلوب ، فوقعت عيناها عليه وأخرجته وبدأت بفتحه ، وكانت المفاجأة .

اتسعت عيناها اندهاشاً :

ـ يا إلهي! ما هذا ؟ هل فتحتُ دفتر رياضيات أم واحة للعشاق ؟

وأخذت تقلّب الصفحات وعيناها تتسعان أكثر فأكثر :

ـ معقول يا نهلة ! أنتِ يحدث منكِ هذا ؟ لا . . غير معقول !

وبينما هي كذلك فوجئت بنهلة فوق رأسها تنظر إليها باستنكار ، فشعرت أنها في مأزق ، كيف ستبرر تدخلها في شؤونها ؟ وبمَ ستظن بها الآن ؟ ثم ما الذي جاء بها بهذه السرعة ؟ يا إلهي كيف تخرج من هذه الورطة ؟!

ـ لو كانت غيرك يا زهرة هي من فعلت ذلك لكان لي ردة فعل مختلفة ، ولكن سأتغافل عن زلّتك هذه المرة ، فلربما أصحاب العين الخضراء يرون الأشياء على خلاف أصحاب العيون البنية .

نظرت زهرة لها وقد اصفرّ وجهها وتعالت دقات قلبها ، ثم أردفت نهلة قائلة :

ـ هل لمجرد أن لون الإطار الخارجي للدفتر وردي . . نتغافل عن

اللون السائد له وهو الأسود ونقول أن لون الدفتر وردي يا فنانة ؟!

نظرت زهرة للدفتر بين يديها تقلبه وقد ازداد شحوب وجهها أكثر .

ـ لقد أخرجتُ الدفتر الخطأ إذاً .

يا لهذا الموقف المحرج . ثم أردفت نهلة قائلة :

ـ اتركي حبيبي إذا سمحتِ .

وأخرجت الدفتر الوردي من حقيبتها وأعطته لزهرة وقالت لها :

ـ حينما تنتهي من تفحصك . . أعيدي الدفتر مكانه مجدداً ، سلام .

تجلدت ملامح زهرة وهي ترى الابتسامة على وجه نهلة ، وكأن الأمر عادياً بالنسبة لها ، والمفاجأة هي موقف ربى ، هي الأخرى حين قالت لنهلة :

ـ لست أدري ما الذي يعجبك في هذا الكائن ؟ جسده غير رياضي أبداً وصوته أشبه بصوت بائعي الخضار .

فقالت نهلة في غيظ :

ـ وهل تفهمين أنتِ في الذوق العالي ؟ بل أنا من يحق لي التعجب من هذا المائع الذي تحبينه ، لا أجد فيه أي شيء يسر العين أو القلب .

ردت ربى بغرور :

ـ حقاً أنتِ جاهلة ، فلتهنئي بحبيب القلب خاصتك ، ودعيني وشأني مع فارس أحلامي .

ـ لحظة ، لحظة من فضلكما ، أنتما تمزحان ، أليس كذلك ؟

قالتها زهرة وقد أشارت بيدها إليهما ليتوقّفا عن الكلام ، ثم تابعت :

ـ كيف تتحدثان هكذا بكل بساطة ؟ كيف تتغزّلان هكذا في هذين الرجلين ولا تخجلان ؟

قالت ربى مستنكرة :

ـ أليس لديكِ حبيب أنتِ الأخرى ؟

زهرة بحزم :

ـ بالطبع لا ، ما هذه السخافة ؟

ـ لا بدّ وأن يكون لديكِ حبيب تستمعين إليه وقت انسجامك (قالتها نهلة) .

ـ لا ، ولم أفكر قبل هكذا ؟

ـ ولمَ ؟ أتظنين نفسك ما زلتِ طفلة ؟ كل الفتيات حولك لديهن فوارس أحلام (قالتها ربى) .

ـ بالطبع لا .

لمحت ربى سمية تدخل الفصل ، تلك الفتاة التي كانت مثلاً أعلى لزهرة في الهدوء والأخلاق ، فهمست ربى لزهرة قائلة :

ـ كم ستدفعين لنا إن كانت سمية لديها حبيب هي الأخرى ؟

عنفتها زهرة قائلة :

ـ طبعاً لا يمكن ذلك ، أنا أعرفها جيداً .

فأشارت ربى إلى سمية تستدعيها لمقعدهن ، فلبت بابتسامة هادئة قائلة :

ـ ما الأمر ؟

أجابتها نهلة :

ـ لا شيء ، زهرة فقط لا تصدق أنه من الطبيعي أن يتواجد معي دفتر خاص ، أدوّن فيه أغاني المطرب الذي أفضّله ، وأضع فيه أيضاً صوراً لألبوماته .

سمية : أنا لا أخصص دفتراً للأغاني المفضلة لدي ، لكن لا مانع من تدوين بعض الأغاني المفضلة في دفتر جانبي ، لكن لا أهتم لهذه الدرجة .

نهلة : لكل منا طريقتها يا عزيزتي في التعبير عن إعجابها

بمطربها المفضل ، وهذه طريقتي .

سمية : لا بد وأنكِ تستمعين إلى أحدهم يا زهرة وقت فراغك .

نفت برأسها وهي تقول : كلهم عندي سواء ، لا أهتم كثيراً بهذا الجانب .

ربى : لا أصدّق ، لا بد وأن هناك من يصل صوته لقلبك أسرع من الآخرين .

سكتت زهرة لتتكلم مع عقلها الباطن قائلة :

« كم أنا حمقاء وأعطي الأمور أكثر مما تستحق ، ظننت الأمر مُشيناً ، بينما هو عادي ومنتشر بين الفتيات حتى وصل لسمية ، إذاً فلتختاري أنتِ أيضاً مطرباً كي لا تشذّي عنهن ، من يا ترى ؟ من يا ترى ؟ »

خطر ببالها أحدهم فقالت الاسم لهن ، ردّت عليها ربى قائلة :

ـ ها قد ظهرتِ على حقيقتك يا لئيمة واعترفتِ أخيراً .

فابتسمت لها في خجل ، وأوحى لها الشيطان : « لا بد وأن تندمجي معهن وتشاركيهن في أحلامهن الوردية تلك ، ما المانع إذاً ؟ لم تعودي صغيرة ، أنت في الصف الثاني الإعدادي !

وتوالت الأيام ، واندمجت وسط صويحباتها يتبادلن الضحكات

والمشاكسات والأغاني ، وصار لها دفتر خاص تدوّن فيه الأغاني المفضلة لديها ، والتي ترددها كلما خلت مع نفسها ، وبدأت تتأثر بتلك الكلمات وترسم في مخيلتها مواصفات فارس الأحلام الذي سيغني لها هذه الأغنيات يوماً ما !

* * *

جاءت العطلة وكانت كباقي العطلات ، وها هي تقضي أغلب وقتها تلعب بعرائسها الخاصة التي قد أعدت لها غرفاً صمّمتها من الكارتون في خزانة مكتبها ، وقد حاكت لهنّ الكثير من الثياب ، تقضي وقتها في تأليف مغامرات بين عرائسها ، وهي تستمع إلى أغاني ذلك المطرب ، فكانت تنعزل بسببها عن العالم وتسافر إلى أرض الأحلام مع الفارس المجهول . ومن وقت لآخر تهاتف نهلة وربى وسمية لتطمئن عليهن ، كما كانت تقضي وقتاً مع ابنة خالها ، ولا تخلو من بعض المشادات مع والدتها التي تنتظر منها في العطلة مشاركتها في أعمال المنزل كما تفعل ابنة خالها ، في حين كانت تتكاسل هي عن ذلك ، فتنزعج منها والدتها وتنهرها ، وكان الأخير سبباً كافياً لتمني انتهاء العطلة . وانتهت العطلة ليأتي الفصل الدراسي الثاني لتتبدل أمور في حياتها .

* * *

وكما هو المعتاد يفاجئهم بندائه المزعج ، ورغم إزعاجه إلا أنهن ينتظرنه بفارغ الصبر ، وكيف لا وصوته هذا ما هو إلا إذن كي ينطلقن ؟ إنه جرس الفسحة .

ربى وقد احتضنت نهلة قائلة :

ـ مبارك يا نهلة ، مبارك حبيبتي ، العقبى لنا .

فعلت زهرة كما فعلت ربى وقالت :

ـ فجأة هكذا دون مقدمات ؟ لمَ لمْ تخبرينا مسبقاً كي نستعد لتلك المفاجأة السارة ؟

ـ فضّلتُ أن تكون مفاجأة ، ها ؟! ما رأيكن ؟

سمية : ما شاء الله ، مبارك يا نهلة .

ربى : مفاجأة غير متوقعة منك يا نهلة ، ولكن لا بدّ من أن نعرف التفاصيل ، فهذه الخطوة بالطبع لن تأتي فجأة .

زهرة : أجل ! ربى محقة ، هيا اعترفي بالتفصيل .

ربى : هيا يا آنسة نهلة ، أخرجي ما في جعبتك .

ابتسمت نهلة وأمسكت بمقود الحديث :

ـ حسناً، حسناً، بدأت الحكاية عندما كنتُ في طريقي إلى إحدى

أقاربنا ، وكنّا في انتظار سيارة تأخذنا حيث نريد ، ولكنها لم تصل ، فقررنا أن نركب سيارة أجرة .

ربى : أها . . قلتِ سيارة أجرة . .

ونظرت لها بمكر ، فتجاهلت نهلة كلمتها ، ثم أردفت :

ـ كان يقودها شاب حسن الهيئة ، نبتت لحيته قليلاً .

قاطعتها ربى مجدداً :

ـ وعندما وقع نظره عليكِ ، سقط قلبه بين يديكِ ، فراقبكِ وعرف طريق البيت ، ثم جاء مع أهله اليوم التالي وطلب يدك ، أليس كذلك ؟

أجابتها نهلة ساخرة :

ـ لا . . أكملي ، وبعد أن أخبرني أبي خرجت للشاب قائلة : « أين أنت يا هذا ؟ لقد طال انتظاري لك منذ الأمس » ، فأخرج الخاتم من جيبه وألبسني إياه . . . هذا يحدث فقط في خيالك المريض أيتها البلهاء (وأشارت إلى رأس ربى) .

زهرة : كفّي عن مقاطعتها يا ربى ، أكملي يا نهلة .

ـ وعندما ركبنا . . لفت انتباهي الدرس الذي كان يستمع إليه ، كان يتحدث عن حسن وسوء الخاتمة ، فانجذبتُ للدرس وكأنه مسّ قلبي ، فاقشعرّ جسدي وتساءلت في نفسي « لم الانتظار ؟ أليس

الحجاب فرضاً عليّ الآن ؟ وإن متُّ سيحاسبني ربي لأنني لم أتحجب ؟ » شعرت بأن الله ساقني لسماع ذلك الدرس ليتغير مجرى حياتي ، فعرضت رغبتي في ارتداء الحجاب على والديَّ فلم يمانعا ، فذهبت واشتريت عدة أحجبة وارتديته ، فشعرت براحة غريبة ، وكأنني أريد التقرب إلى الله أكثر فأكثر ، فاشتريت عدة تسجيلات دينية واستمعت إليها ، فاهتزّ شيء بداخلي ، وبدأت أتجنب كل شيء يبعدني عن الله ، أو يفسد عليّ تلك الحالة الروحانية التي أعيشها ، وتركت الاستماع إلى الأغاني وأبدلتها بالدروس الدينية . . هذا كل ما في الأمر .

سمية : ما شاء الله ! أسأل الله لك الثبات يا نهلة .

نهلة : اللهم آمين ، أتعلمن يا بنات ، من ضمن قصص سوء الخاتمة ، كان هناك شاب يعشق الغناء ، وكان يسمع الأغاني وهو يعمل أو في وقت فراغه ، وفي يوم كان ذاهباً للعمل اصطدمت به سيارة ونقل للمشفى بعد أن أغمي عليه ، وعندما أتى الطبيب ليفحصه وجد حالته متدهورة للغاية ، ولفت انتباهه أن ذلك الشاب كان يتمتم ببعض الكلمات ، فاقترب منه علّه يفسرها ، فوجده يردد كلمات أغنية !

زهرة : يا إلهي ! وهل مات ذلك الشاب ؟

نهلة : أجل مات وهو على تلك الحالة ! لذلك قررت أن أحرق دفتري الخاص وأكفَّ عن سماع الأغاني .

عقبت ربى باستخفاف :

ـ لكن يا نهلة ! هناك الكثير قد أباح الغناء وقال بحلّه .

ـ وليكن ، أنا غير مستعدة أن أردّد حين موتي أغاني بدلاً من الشهادة .

ـ يا نهلة ! وهل كل من يستمع إلى الغناء سيردد أغاني عند موته ؟! لقد توفي أحد أقاربي في حادث ، وعندما غسلوه وجدوا وجهه مبتسماً .

ـ ومن يضمن لي تلك النهاية ، مادام هناك من يحرّمها ولأجل هذه اللحظة التي لن ينفعني فيها أحد سأتركها ، وسأشغل نفسي بالقرآن .

سألت زهرة :

ـ وماذا عن أوقات فراغك ؟

ـ هناك الكثير لأفعله في وقت فراغي ، يمكنني أن أستمع إلى بعض الدروس الدينية ، وتعلم قراءة القرآن ، كما أن هناك منشدين لهم تسجيلات رائعة يمكنني الاستماع إليها إذا تطلّب الأمر .

قالت ربى مستهزئة وقد ضيقت عينيها :

ـ ستصبحين إذاً الشيخة نهلة ؟!

فأجابت نهلة :

ـ لا يا ظريفة ، أنا فقط وضعت قدمي على أول السلم ، وأرجو أن أصل لمرضاة الله ، أما المشيخة فلها أهلها .

سمية : ما شاء الله ! كلامك ممتع يا نهلة ، أسأل الله لنا الهداية ولك الثبات .

* * *

انتهى اليوم الدراسي ، وتوجهت زهرة بمفردها إلى البيت وفي طريقها تعيد كلماتِ نهلةَ نفسَها في رأسها : كيف استطعتِ يا نهلة فعل ذلك في هذا الوقت القصير ؟ هل يعقل أن يحدث للمرء هذا التغيير في يوم وليلة ؟ أيعقل أن يتبدل حال صاحبة الدفتر الأسود من هذه لتلك ؟ أليس من المبكر جداً اتخاذ هذه الخطوة ؟! فنحن ما زلنا صغيرات وأمامنا العمر طويلاً ؟ أجل العمر طويل ، وفي العام المقبل إن شاء الله سأرتدي الحجاب مثلك يا نهلة .

وبينما هي كذلك وإذ بها تسمع صوتاً فجائياً شلّ أعضاءها وحجر جسدها .

- يا إلهي ، كيف هذا ؟ لا ، لا إنه حتماً حلم ، لا بد أنه كذلك ، وأخذت تتردد هذه الجملة في مسمعها ، وهي لا تستوعب بعدُ ما جرى .

وتتصارع الأقدام تجاهها وصراخ لا تعلم من أي اتجاه هو ، بينما هي قد شُلّت تماماً عن الحركة والكلام .

* * *

- اهدئي يا بنتي واحمدي الله أنه لم يحدث ما هو أسوأ من هذا .

قالتها أم زهرة وهي جالسة بجوار ابنتها تهدئ من روعها ، حيث لم تكفَّ عن البكاء منذ أن عادت للبيت .

- لا أستطيع نسيان ما حدث يا أمي .

- الحمد لله يا بنتي أنك عدتِ إلي سالمة ولم يصبك مكروه .

- بل أصبتُ يا أمي ، لا تستهيني بما حدث لي .

- ما حدث لك سيتلاشى بعد أيام قليلة ، لكن هذه المسكينة ترى ما هو حالها الآن ؟ كان الله في عون والدتها . (وهزت رأسها في أسى) .

- كانت تسير بجواري وفجأة لا أدري من أين جاء هذا المتهور واصطدم بها فأطاح بها ووقعت أمامي وقد غابت عن الدنيا ، منظر يخلع القلب يا أمي .

ودخلت في موجة بكاء جديدة وهي تقول :

ـ كانت أصغر مني يا أمي ، أصغر مني ، هل الموت لا يرأف بالصغار هكذا ؟

ـ الموت لا علاقة له بالسن ، الموت يأتي في أي وقت ولأي إنسان صغيراً كان أو كبيراً ، غنياً أو فقيراً ، لا يحكمه قانون ، فقط أمر الله يحكمه ، والله يتصرف في خلقه كيفما يشاء ، وله حكمة لكل شيء جهلها من جهل وعلمها من فطن .

ـ لو لم تكن تلك الفتاة تسير بجواري لكنت أنا الصريعة الآن ، ربما كنت أنا المقصودة بالفعل وراحت هي ضحية .

ـ لا يا بنيتي ، لا تقولي هذا ، فالموت لا يخطىء أبداً ، وكل مصيبة يصابها الإنسان كانت موجهة له هو بالتحديد دون غيره ، لا تدرين حكمة الله فيما جرى ، والحمد لله أنه لم يضرني فيكِ ، هيا قومي وصلّي ، فطعام الغداء جاهز .

ـ لا ، ليس لي رغبة في تناول أي شيء الآن ، فأنا مرهقة وأريد أن أنام قليلاً .

ـ حسناً ! صلّي وارتاحي قليلاً .

وتركتها وخرجت من الحجرة .

تقلّبات

مرّ أسبوع على زهرة وهي في حيرتها وحزنها ، تتذكر ذلك الحادث الأليم وتتذكر تعقيب نهلة عليه بأنه ربما كان رسالة لها من الله كي تقترب أكثر منه ، فاتخذت أخيراً القرار ، وارتدت الحجاب ، وبعدها بقليل ارتدته أيضاً سمية ، وازداد تعلقها بهما ؛ فقد وجدت في نهلة احتواء الأخت ، ووجدت في سمية الفتاة الخلوقة الهادئة التي ترجو أن تغدو مثلها يوماً .

* * *

انتهى العام الدراسي وانتهت الاختبارات ، وفي آخر يوم فيها اجتمعت مع نهلة وربى وسمية .

زهرة : أتعلمن ؟ أتمنى من كل قلبي أن نصبح جميعاً معاً في الصف نفسه العام المقبل .

سمية : أجل ، وأنا أيضاً أتمنى ذلك .

زهرة : سنظلّ صديقات حتى وإن لم يحدث هذا ، أليس كذلك ؟

نهلة : بالطبع ، إن شاء الله .

زهرة : شكراً لك يا نهلة على الأوقات الجميلة التي قضيتها معك ، وشكراً على نصائحك لي ، كم تمنيت لو كان لي أخت مثلك .

وبعد السلام والوعود ، افترقت الفتيات بعدما تصبّرن بوعود الوصال . . وتبتعد زهرة شيئاً فشيئاً عن نهلة وسمية وقلبها ينقبض أكثر فأكثر وتحدّث نفسها :

« ترى ! سيحدث ما أخشاه ونفترق العام المقبل أم سنكون معاً في الفصل نفسه ؟ يا إلهي ! مجرد تخيّل الفراق تضيق عليّ الحياة ، أحتاجك يا نهلة بجانبي كي ترشديني إلى الصواب ، ليتك تعلمين كم أحبك يا صديقتي ، ليتك تعلمين من أنتِ بالنسبة لي » .

كانت مؤمنة جداً أن الوصال ليدوم . . لا بدّ من أن تظل هي ونهلة في الصف نفسه وإلا فلن يدوم !

* * *

رن هاتف المنزل فاتجهت إليه لتجيب بتذمر ، فلقد أخرجها الاتصال من المشادات التي كانت بينها وبين أمها .

ـ مرحبا . .

ـ مرحباً ، كيف حالك يا زهرة ؟

ـ جئتِ في موعدك . . .

سحبت الهاتف داخل غرفتها وأغلقت الباب كعادتها لتتحدث مع صديقتها بحرية ، فسألتها نهلة :

ـ خيراً ما بكِ ؟!

ـ لا جديد ، الحوار المعتاد بيني وبين أمي ، « افعلي ذلك ، وبعد الانتهاء قومي بهذا » ، لست أدري هل العطلة للراحة أم للأشغال الشاقة ؟

ـ وما المشكلة في مساعدة أمك يا زهرة ؟

ـ أريد أن أتصرف بحريتي ، أفعل أو لا أفعل ، لا أريد أن تتوالى علي الأوامر هكذا ، ولا أريد أن تقارنني بابنة خالي من وقت لآخر .

ـ أتعلمين ! أمي لا تقبل مشاركتي معها في أي شيء ، تفعل بنفسها كل شيء ، وكلما عرضت عليها المساعدة ترفض ، وهذا يحزنني .

ـ لو كنتُ مكانك لسررت بذلك .

ـ بالعكس ، فمساعدة الأم لها أجر عظيم ، انظري كم تتحمل من أجلك .

ـ أعلم كل هذا ولكني أريد أن أقضي وقتي كيفما أشاء ، أساعدها برغبتي ، هل فهمتِ قصدي ؟

ـ أجل ولكن لا يجب أن تغضبيها ، حتى لو لم تأتِ الأوامر على هواكِ ، ولا تنسي أن الجنة تُنال برضاها .

ردّت بتذمر :

ـ حسناً ، حسناً ، سأنتبه فيما بعد ، دعكِ مني ، كيف حالك أنتِ ؟

ـ بخير الحمد لله ، كنت أودّ أن أخبرك بشيء ، فلربما تشاركينني فيه .

ـ وما هو ؟

ـ لقد عقدتُ العزم على حفظ القرآن الكريم ، وقررتُ الذهاب إلى المسجد كي يكون لي معلمة تشرف على حفظي وتضبطه لي ، ما رأيك أن تأتي معي ؟

ـ جميل ، فكرة رائعة . سأسأل أمي وأردّ عليكِ .

ـ حسناً ، وهدّئي من انفعالك مع أمك يا زهرة .

ـ حسناً سأحاول !

ـ إذاً سأتركك الآن في انتظار اتصال منك لتخبريني عن ردّها .

ـ حسناً ، وأشكركِ مقدماً أن فكرتِ في إخباري بذلك .

وبالفعل ، استأذنت والدتها ـ التي بالطبع ستقوم بالمهمة مع

الحاج حازم ـ في السماح لها بالذهاب برفقة نهلة إلى المسجد ، فجاءها الرد بالموافقة ، فاتصلت بنهلة وبلغتها الرد واتفقتا على موعد اللقاء .

وبعد تناولها الغداء ارتدت ملابسها ـ سروالاً يعلوه قميص ـ ووضعت غطاء رأسها ثم تأمّلت حجابها وتحدّثت مع نفسها :

ـ وها أنتِ يا نهلة كما اعتدتُ منك . . سبب لكل جميل في حياتي ، لا أعلم كيف أشكركِ على هذا الموقف ، الحمد لله أن سخّر لي من تأخذ بيدي إليه .

وضعت مصحفها في حقيبتها وانصرفت بعد أن أكدت عليها والدتها ألا تتأخر عن المغرب كي لا يغضب والدها . وفي بيت الله شعرت بجوٍّ روحاني وكأن قلبها قد نبت فيه شيء جميل ، وكيف لا وكلام الله لا يضاهيه كلام ، والأنس بالله يرزق الإنسان راحة البال ؟!

* * *

(سبتمبر ٢٠٠٢ م ، عام دراسي جديد)

هل حقاً القدر موكل بالمنطق أم أن قلب المؤمن دليله ؟ لطالما تلفظت بخوفها من أن تفترق هي ونهلة ، وها هي تنفصل عن صديقتيها لتستقر في فصل مختلف ، تدخل فصلها وفي قلبها

حسرة ، هي لا تريد أن يحدث هذا ولا تقبل هذا الواقع ، لا تعرف أحدًا في هذا الفصل ، وبينما هي هائمة هكذا ، إذ بها تسمع من تناديها .

ـ زهرة ، يا زهرة ، تعالي هنا .

التفتت حيث الصوت ، فوقعت عينها على صاحبته ، ابتسمت ابتسامةَ مَن وجد قشةً أثناء الغرق ، واتجهت نحوها .

ـ أهلاً يا عزيزتي ، هل أنت هنا أيضاً ؟

ـ أجل .

ـ هلا جلستِ بجانبي ؟

ـ لا بأس ! فأنا لا أعرف غيرك هنا !

مرت أربعة أسابيع اعتادت فيهنّ على الفصل ، وبدأت تندمج مع زميلاتها ، وكانت في وقت الفسحة تذهب إلى نهلة وتقضيه معها ، وعندما تستأنف الحصص تعود حيث (وئام) .

وبدأت الاختبارات الشهرية الأولى :

ـ مرحباً يا زهرة ، كيف حالك غاليتي ؟

ـ الحمد لله يا شبيهتي ، بخير . . وتصافحها وتحتضنها .

ـ شكراً على هذا الإطراء ، لكن لست شبهك في شيء ، فلا لون

عيني مثلك ولا لون بشرتي ، صحيح . . ما لون عينيك ؟

ـ لست أدري ، فأحياناً يقولون أنها خضراء وأحياناً زرقاء .

ثم قالت مازحة :

ـ أمي خضراء العين وأبي أزرق العين ، فلربما جاءت عيني بلونٍ يرضيهما معاً .

ضحكت وئام وقالت :

ـ جائز ، المهم ، هل استعديتِ لاختبار الرياضيات ؟

ـ وهل سيغير استعدادي من الأمر شيئاً ، أنا غير مطمئنة أصلاً لتلك المعلمة ، أرأيتِ كيف تلحّ علينا لتعطينا درساً خارجياً ، ولمّا لم نستجب لها توعّدتنا جميعاً .

وبينما هما كذلك تتحاوران ، سمعتا مجموعة بنات في المقعد الأول يتسامرن ويغنين :

ـ تعالي معي يا زهرة نذهب حيث هؤلاء الفتيات المشاغبات .

وأمسكت بيدها متجهة نحوهن ، وما أن انضمت لهن قالت :

ـ ماذا تفعلن ؟ أصواتكن يسمعها المارة في الشارع !

سألت وئام ، فأجابتها إحداهن :

ـ لا شيء . . فقط تبهرنا تلك المطربة المغمورة بصوتها الشاذ .

وأشارت إلى إحداهن ، وضحكت فضحكن ، فسألتها وئام :

ـ هكذا إذاً ، وماذا كنت تغنين ؟ أطربينا هيا .

ـ لا ، أخشى عليك من الصدمة ، فصوتي لن يفهمه أمثالك .

ـ حسناً فلتغني لنا زهرة ، ونرى من تفوز .

التفتت زهرة إلى وئام دفعة واحدة وقد احمرت وجنتاها خجلاً وقالت بتلعثم :

ـ م م ماذا ؟ أنا ؟! ! لا لن أفعل بالطبع .

ـ بالطبع ستفعلين ، فلقد سمعتكِ وأنتِ تنشدين ، فعلمت أنكِ ذات حسّ جميل .

ـ لا يا وئام ، لا تضعيني في موقف محرج ، أنا لست كذلك ، هي فقط دندنة بيني وبين نفسي .

أنكرت عليها الفتاة نفسها وقالت :

ـ أسمعينا وسنحكم نحن .

ـ لا أرجوكن . (وأشارت بيدها بعلامة الرفض) .

ـ إن كان لي خاطر عندك أنشدي لنا ، (قالتها وئام برجاء) .

ردّت بحرج : حسناً ، ولكن ستتحمّلن العواقب .

وبدأت في الغناء بصوت مرتعش ، وعندما لمحتْ في أعينهن بواكير الإعجاب عادت لها ثقتها وضُبط صوتها .

ـ معقـووووول ! أنـت يـا زهـرة تفعليـن هـذا ؟ أنـتِ تغنيـن ؟ لا أصدق أنك كذلك ، ظننتك متدينة ولست من هواة الغناء ؟

نظرت زهرة لتلك الزميلة المتدينة والتي دخلت الفصل لتوّها بدهشة وقالت :

ـ وهل رأيتني أرقص أو أغني بميوعة ؟ تلك أغنية سمعت إحدى زميلاتي تغنيها وقالت أنها لمصر .

ردت الزميلة ضاحكة بسخرية وقالت :

ـ لمصر ؟ وهل تأمّلتِ كلماتها ؟ لقد سقطتِ من نظري .

نظرت لها زهرة بضيق وقد ربط لسانها عن الكلام ، ووجدت العبرات إلى عينيها سبيلاً ، فقالت لها وئام بحزم :

ـ ماذا تقولين يا فتاة ؟ لا يحق لك أن تحدثيها هكذا ، هي لم تقترف إثماً ، ولولا إصرارنا لما غنت أصلاً .

ـ وهل إذا أصرّ عليها أحد أن تلقي نفسها في النار ستفعل ؟

أجابتها وئام بحدة :

ـ تعطين الموضوع أكبر من حجمه يا هذه .

دخلت مدرّسة الرياضيات ، فعادت كل فتاة حيث مقعدها ، وزهرة أضحت كمن سكب على جسدها ماء ساخن ، ليتها لم تطع وثاماً كي لا تتعرّض لهذا اللوم اللاذع من فتاة خرجت من بيت ملتزم .

وبعد التحية بدأت المعلمة في توزيع أوراق الاختبار حتى وضعت ورقة زهرة أمامها ، وعادت إلى مقدمة الفصل تراقب الفتيات ، وفي عينيها نظرة تحدٍّ .

نظرت بعينين مكسيتين بالعبرات إلى الورقة التي ما أن رأتها حتى سالت الدموع من عينيها تباعاً .

ـ يا إلهي ، فعلتيها يا معلمة ! فعلتيها ونفذتِ تهديدك لنا ! يا لقسوة قلبك ! .

وظلّت تبكي وتكتم صوت بكائها وتشعر بالتوتر الشديد يفيض من وثام فيصيب ما بقي لديها من صلابة .

ومضى الوقت سريعاً ولا تجيب زهرة إلا عن نقطة فقط في الاختبار ، وإذ بالمعلمة تعلن سحب الأوراق وانتهاء الوقت ، فكأنما سحبت روح زهرة لا الورق !

ـ ما هذا ؟! !

ـ ما بها يا بنات ؟! !

ـ قومي يا عزيزتي ؟! !

ـ أحضرن بسرعة كوب ماء ؟! !

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله!!

تلك العبارات كانت كالطنين في مسمعها ، لا تستطيع أن تميز ماذا يجري ، وبعد وقت لا تدري قليلاً كان أم كثيراً ، تبدأ زهرة بفتح عينيها شيئاً فشيئاً لتسمع صوت مدرسة تناديها :

ـ زهرة ! هل أنتِ بخير يا عزيزتي ؟

حركت زهرة رأسها في جهد شديد أنْ نعم .

ـ الحمد لله يا بنتي ، هيا تماسكي واذهبي لتغسلي وجهك .

وأشارت إلى وئام أن تسندها وترافقها ، وفي طريقهما إلى دورة المياه قالت وئام وهي ممسكة بمرفق زهرة تسندها .

ـ ماذا حدث لك يا عزيزتي ؟ لقد خفت جداً عليكِ !

ـ لا أدري يا وئام ، عندما أخذتْ مني تلك المدرّسة القاسية الورقة ، شعرت كأنها أخذت روحي ، وشعرت برعشة سرتْ في جسدي بالكامل ، وكأن أحدهم قد سحبني إلى بئر عميق ، وأظلم كل شيء حولي ولم أسمع سوى طنين في أذني .

ـ أنا وجدتك فجأة تسقطين على الأرض ، وحينما حاولت

الإمساك بكِ كنتِ كقطعة عجين بين يدي .

ـ هي السبب فيما حدث لي .

ـ وهل تظن أننا بفعلتها هذه سنذهب لها لتعطينا درساً خارجياً ؟!

ـ أنا لا أقصد المعلمة ، صحيح قد نزعت الرحمة من قلبها ، وطمعها ساقها لفعلتها تلك ، ولكنني أقصد زميلتنا ، فلولا كلماتها الذابحة لي لما انهرت عندما رأيت الاختبار الشؤم هذا .

ـ سامحها الله ، تكلمتْ وكأنها أمسكتْ عليك جرماً ، لكن لا تهتمّي لكلماتها ، أنتِ لم تخطئي ، فأنا أيضاً ظننتُ الأغنية وطنية .

* * *

أتى المساء وهي تشعر بالحزن والضيق بسبب ما حدث في المدرسة ، فما كان منها إلا أنها قررت أن تهاتف نهلة وتقص عليها الأمر لتحكم فيه ، فكان جوابها :

ـ وأين الإثم في هذا ، لقد تسرعتْ في الحكم عليكِ ، حتى وإن كنتِ مخطئة في شيء لا يحق لها أن تحدثكِ هكذا .

ـ سامحها الله ، قد جعلتني كلماتها أحترق في داخلي ، فلم أوفق في اختبار الرياضيات .

ـ وهل كان الاختبار سهلاً أصلاً ؟! لقد رأيته وانزعجتُ جداً .

ـ لا أدري كيف يفعل الطمع بأحدهم هكذا ؟ لا يهمّها الشرح بقدر اهتمامها بالدرس الخارجي .

ـ وهل تظنين أن الله سيبارك لها في راتبها ، لا والله .

ـ أصلاً مظهرها لا يليق بمدرّسة ، تأتي كمن تذهب لحفلٍ .

ـ دعينا منها هداها الله ، المهم أن تنتبهي لصحتك ، ولا تنسي قراءة القرآن يومياً ، كي يشرح الله صدرك ويكفيك شر الناس .

ـ إن شاء الله .

« **المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل** » .

انتهت السنة الثالثة في المرحلة الإعدادية ، وحصلت زهرة على مجموع يقارب مجموع صويحباتها ، ففتح أمامها أمل جديد لتلتحق هي ونهلة بمدرسة ثانوية واحدة ، ويضمهما فصل واحد لتتقوى صداقتهما أكثر .

* * *

(يونيه ٢٠٠٣م)

دخل الحاج حازم البيت وقد أنهكه الحر الشديد ، بعدما عاد لتوه من المدرسة الثانوية التي كان يرغب فيها لابنته ، طلب كوباً من العصير ليعالج جفاف حلقه .

ـ ها يا أبي ، ما الأخبار ؟ هل قُبلت أوراقي ؟ . . . (قالتها زهرة بلهفة) .

رد الحاج حازم بجدية :

ـ قُبلتِ بشكل مبدئي ، سيتوقف ذلك على مجموع المتقدمات للمدرسة ، وسيكتفون فقط بصاحبات المجموع المرتفع ، ولا أدري ستكونين منهن أم لا .

ردّت بثقة :

ـ سأكون منهن يا أبي إن شاء الله ، مجموعي يقترب من مجموع زميلاتي المتفوقات .

رد الحاج حازم بكل هدوء وهو يشرب من كوب العصير :

ـ سنرى !

* * *

جلست في المساء على مكتبها ممسكة بألوان الرسم الخاصة بها تضع اللمسات الأخيرة على رسمتها ، دخلت عليها أمها لترى ماذا تفعل وقالت :

ـ ها ؟! هل انتهيتِ من رسمتك ؟

ـ أجل يا أمي ، ما رأيك فيها ؟

تأمّلتْها والدتها ثم قالت مبتسمة :

ـ جميلة ، تشبه كثيراً صحبة الورد التي نسجت على الستار .

قالت كمن حققت نصراً :

ـ بل هي هي يا أمي !

ـ وفّقتِ في رسمها .

ـ أشكرك ، سأصبح في المستقبل فنانة ، سأكون رسامة مشهورة ، سألتحق بكلية الفنون الجميلة .

ردت الأم مستنكرة :

ـ وماذا عن كلية الطب أو الهندسة التي يريدها لك أبوكِ ؟

أجابت بنزق :

ـ أنا لا أريد أن أصبح طبيبة ولا مهندسة يا أمي ، لا أريد .

ليست هذه المرة الأولى التي تسمع من ابنتها هذا ، ولكن ما زال لديها أمل أن تغير رغبتها ، فتداركت الموقف قائلة :

ـ على العموم ، هذا الكلام سابقٌ لأوانه ، المهم أن تُقبلي في المدرسة الثانوية ، ثم ننظر ماذا بعد .

قالت مترجية وقد عقدت حاجبيها :

ـ يا أمي ! مجموعي مناسب ، فقط ادعي لي ، هذا ما أحتاجه .

ـ أنا أدعو لك دائماً يا بنتي ، أنتِ وأخواك في صلاتي .

ـ وهذا يكفيني .

* * *

(يوليو ٢٠٠٣ م)

ـ الحمد لله ، الحمد لله . . تم قبولي بها يا أمي .

قالتها زهرة وقد تهللت أسارير وجهها ، وفاض صوتها بسعادة بالغة ، فردت أمها وقد غمر وجهها الرضى :

ـ مبارك عليك ، ها ؟! قد استجاب الله لك أخيراً .

ـ أجل ، هذا ظني في الله .

ـ وكذلك تم قبول ابنة خالك في المدرسة نفسها ، هذا جيد .

ابتسمت زهرة وقد أقرت في خاطرها « هكذا قد ارتاح قلبي أنني لن أفارق صديقتي نهلة » .

* * *

تملكتها سعادتها بعدما تم وضعها هي ونهلة في قائمة فصل واحد ، لحسن حظها أنها تعرف الموظفة في المدرسة المسؤولة عن ذلك ، فصارت تنتظر بدء الدراسة بفارغ الصبر لتلتقي بصديقتها

يوماً ، فالإجازة قد أعادتها لوحدتها حيث لم يكن بوسعها أن تلتقي بنهلة يومياً .

(سبتمبر ٢٠٠٣ م)

ارتدت التنورة والقميص وحجابها ، ثم وقفت أمام المرآة تحدث نفسها :

« هذه أول مرة أتعجل فيها الذهاب إلى المدرسة ؛ فقد عرفت مسبقاً فصلي ومن ستكون معي ، ماذا تخبئين لي يا مدرستي في جعبتك من مفاجآت سارة ؟! » .

حملت حقيبتها ذات الذراع الواحد وسلمت على والدتها تقبلها ، ثم تناولت شطائرها وغادرت إلى المدرسة برفقة ابنة خالها التي ستكون معها في الفصل نفسه للمرة الأولى .

ـ مرحباً يا عزيزتي ، تبدين أجمل في تلك الملابس .

ردت بزهو :

ـ مرحباً يا ابنة خالي ، هذا أقل ما عندي يا عزيزتي .

تحركت الفتاتان حيث نهلة التي كانت في انتظارهما :

ـ مرحباً يا نهلة .

ـ مرحباً يا صديقتي .

ـ ها قد حانت اللحظة لتلتقيا ، هذه يا « نهلة » « تالة » ابنة خالي التي طالما حدثتك عنها .

ـ مرحباً تالة ، زهرة حدثتني عنك كثيراً .

ـ سعيدة جداً بمعرفتك (تتصافحان) .

* * *

مرت أيام كانت كافية لتصبح نهلة وتالة صديقتين ، فكل منهما تعرف الأخرى من خلال حديث زهرة ولم يكن ينقصهما سوى اللقاء . كانتا متشابهتين في أمور شتى ، فكونت أواصر الصداقة بينهما سريعاً ، وفترت علاقة نهلة بزهرة !

اصطفّت الفتيات في طابور الصباح ، وبدأت مدرّسة التربية الرياضية بمهمتها الصباحية في أمر الفتيات للقيام بتمارين لا تجدي نفعاً سوى حركات رتيبة فرضت عليهن ينفذنها في ملل ، وبعد ثلاثة تمارين جاء دور فقرة الإذاعة المدرسية ، وقفت مُقدمة الإذاعة . . تلك الفتاة السمراء ذات الملامح الطفولية ، وخلفها اصطفت جماعة الإذاعة . بدأت في تقديم فقرة القرآن الكريم ، ثم تتراجع لتتقدم فتاة نحيلة الجسد ، ترتدي معطفاً من الجينز الأزرق تحته سروال المدرسة ، تضع غطاء رأس أبيض يغطي رقبتها ، وترتدي نظارة طبية ، وما أن بدأت في القراءة حتى عم الصمت في أركان

المدرسة ، حتى الهمس قد غاب أيضاً . . هذا الصوت الملائكي يسرق الأسماع كعادته ، ولكنه حينما يمتزج بالجو الروحاني الذي يفيض به شهر رمضان ، ذلك الشهر الكريم الذي تستقبله القلوب استقبالاً مميزاً .

« من أين أتيتِ يا فتاة ، كلما سمعت صوتك هذا . . يشعر قلبي براحة تامة ووددت لو طالت مدة قراءتك » .

وصارت تحدث زهرة نفسها وعيناها مصوبتان تجاه قارئة القرآن في الإذاعة المدرسية .

ـ أتمنى لو أتعرف عليها وأكون صديقة لها ، فهذه الفتاة حتماً على دين وخلق .

قالت نهلة تلك العبارة بصوت سمعته زهرة ، فقالت الأخيرة :

ـ وماذا لو تحققتْ أمنيتك ؟

فالتفتت إليها نهلة تقول بسعادة عكستها نبرة صوتها :

ـ حقاً ، كيف ؟!

ـ اتركي لي هذه المهمة .

ردّت بانتشاء : حسناً .

انتهى الطابور واتجهت الفتيات نحو فصولهن ، وإذ بنهلة تتوجه

بالحديث إلى إحدى الفتيات معهن في الفصل نفسه ، فتلتقط مسامع زهرة هذه العبارة من نهلة حيث تقول :

ـ أنت قريبة سارة ، أليس كذلك ؟

فتجيب الفتاة أن أجل .

فانشغلت بتلك العبارة ولم تنتبه لباقي الحديث .

وبالفعل استطاعت أن تصل إلى سارة من خلال قريبتها ، ودار بينهما حوار فعرفت كل منهما الأخرى . لقد أخذت تلك الخطوة لتسعد بها نهلة بعدما فترت صداقتهما في الفترة الأخيرة ، لذلك حاولت جاهدة أن تحقق لها ما تمنت علّها تنتبه إليها مجدداً ، رغم أن زهرة ما زالت انطوائية لكنها تحركت بدافع إدخال السرور على قلب صديقتها .

وفي يوم لاحق في فترة الفسحة . . قررت مرافقة نهلة وتالة ، فقد أزعجها بقاؤها بمفردها الأيام الماضية :

ـ انظري يا نهلة! ها هي سارة مقبلة في اتجاهنا ، إن شئت جعلتك تحدثينها ، ما رأيك ؟

ـ أتمنى ، ولكنني أشعر بالحرج .

ـ ولمَ ؟ أنا معك وسأهون عليك الأمر .

ـ حسناً .

نظرت زهرة إلى سارة وقريبتها فتقابلت الأعين وتبادلت الابتسامات حتى التقين عند خط واحد ، وتعرفت كل منهن على الأخرى فكان لنهلة ما تمنت ، ولم يكن لزهرة ما تمنت ! فصداقتهما تفتر شيئاً فشيئاً ، وفازت تالة بصداقة نهلة ، وتملكها الشعور بالوحدة مجدداً !

سارة

(عام جديد)

افترقتا كما توقعتْ ، صارت وحيدة مجدداً ، فلقد التحقت هي بالشعبة الأدبية ، بينما التحقت نهلة وتالة بالشعبة العلمية لتحُول الدراسة بينها وبين رفيقتها تماماً .

صارت شاردة ، لا ترغب في إقامة صداقة جديدة مع أحد ، رغم أنها كانت تحمل لهن في قلبها كل الحب ، ربما كانت وئام التي كانت تجلس بجانبها هذا العام أيضاً هي الأقرب لها ، مرت بحالات اكتئاب بسبب وحدتها ، كثر بكاؤها ، وقلّ كلامها ، تأثرت جداً بغياب نهلة عن يومها ، حتى هذا اليوم !

دق الجرس معلناً بدء وقت الفسحة فذهبت نحو المسجد وصلّت

الظهر ، وبينما هي في طريق عودتها إلى الفصل ؛ لمحت تلك الفتاة الواقفة أمام السبورة ممسكة بالقلم وقد أنهت لتوّها رسم وجه فتاة بإتقان . دخلت زهرة الفصل فألقت التحية على تلك الفتاة وأخذت تتأمل الرسمة مندهشة ، فسألتها :

ـ هل أنت من رسمت هذه يا سارة ؟!

ـ أجل ، هل أعجبتك ؟

ـ جداً جداً ، ظننت أنني أتقن الرسم ولكنني أيقنت الآن أنني مبتدئة .

ـ وهل تحبين الرسم حقاً ؟!

ـ أجل ، لكنني لم أصل بعد لمستواكِ هذا .

ـ هل معكِ شيء من رسوماتك الآن ؟

ـ لا ، إنها في البيت ، سأصحبها معي غداً وأطلعكِ عليها .

ـ حسناً ، لا تنسي ذلك .

ـ لن أنسى إن شاء الله .

تركت زهرة سارة متجهة إلى فصلها وعقلها قد انشغل بتلك الرسمة التي رأتها لتوّها .

« لم أتوقع أن أجد من تتقن الرسم هكذا ، أنت بارعة جداً يا سارة ، ليتني أصبح مثلك في يوم من الأيام » .

* * *

عادت إلى البيت ودخلت غرفتها ، فتحت درج مكتبها ، وأخرجت كراسات الرسم الخاصة بها والتي تحتفظ بها منذ دخولها المرحلة الإعدادية ، وأخذت تتأملها وتنتقي منها الأفضل .

« يجب أن أعرض على سارة أفضل ما رسمت ، ولكن رسمتها تتفوق كثيراً على رسوماتي ، ترى ماذا ستقول عندما ترى هذه الخربشات ؟! » .

* * *

وجاء اليوم التالي وكانت في انتظاره بشدة ، تتمنى مرور الوقت لتذهب إلى سارة وقت الفسحة ، وما أن دق الجرس معلناً ابتداء وقتها حتى أسرعت نحو سارة التي وقفت وقفة الأمس نفسها أمام السبورة ولترسم مشهداً آخر .

ـ السلام عليكم .

ردت سارة ببشاشة :

ـ وعليكم السلام ، أهلاً زهرة .

ـ لقد أحضرت لك كراسات الرسم الخاصة بي .

ـ حقاً !

ـ أجل .

جلستا متجاورتين على أول مقعد في الصف ، وبدأت زهرة على استحياء تعرض عليها رسوماتها ، فتثني عليها ثناء لم تكن تتوقعه ، كأنها بذلك قد منحتها وسام شرف .

« ما أجملها تلك اللحظات التي نختزنها في الذاكرة ولا يمحيها الزمان ، تلك اللحظات المزهرة تكفي لجعل الذكريات أروع » .

ومرت أيام وفي كل يوم تذهب زهرة إلى سارة في وقت الفسحة وترسم كل منهما شيئاً على السبورة ، وها هي زهرة تتحول من حالة الحزن والوحدة إلى الفرحة والاحتواء ، ونبت بينهما صداقة طيبة تنمو مع الأيام ، وخاصة بعدما سافر والدي زهرة إلى العمرة ، فكانت تتقوى على غيابهما بالجلوس مع سارة في منزلها . لقد تأثرت جداً بسارة حتى أصبحت تقرأ القرآن بصوت يشبه صوتها ، وكذلك تأثرت بخطها ، لقد ملأت سارة الفراغ الذي سببته نهلة ، ونشأت بينهما صداقة في الله ، فتغيرت أمور كثيرة في شخصية زهرة إلا أنها صارت أكثر حساسية ، ربما هذا بسبب المرحلة العمرية التي تمر بها !

لقد أدركت قيمة أمها حينما غابت عنها وندمت كيف كانت تعصيها ولا تلبي لها كل طلباتها ، تذكرت نصائح نهلة فحن قلبها لتلك الذكريات الجميلة التي جمعتهما ، هي مدينة لها بالكثير ، لقد عقدت العزم على أن تفتح مع أمها صفحة جديدة لتكفّر عما بدر منها سابقاً .

« من المحزن ألا ندرك قيمة الأحباب إلا إذا غابوا عنا ، أحياناً يكون الغياب مؤقتاً يمكن بعده تصحيح أخطائنا في حقهم ، وأحياناً يكون غياباً دائماً يورث لنا آلاماً لا سبيل للشفاء منها ، لأنه قد فات الأوان » .

انتهى العام الثانوي الثاني ، وانتهت الاختبارات وظهرت نتيجة الثانوية العامة . وفي الصباح تتابعت الاتصالات من الأهل والأقارب ليطمئنوا على نتيجتها ، بينما هي كانت حزينة جداً لأنها لم تُحصل المجموع الذي تمنته حتى هاتفتها سارة والتي تخفف عنها دائماً .

ـ ما الأخبار يا زهرتي ؟ ما نتيجتك ؟

ـ للأسف يا سارة . . مجموعي ليس كما كنت أتوقع .

ـ لماذا يا عزيزتي ؟

ـ بسبب مادة التاريخ .

ـ حقاً ؟ لعله خير . أتعلمين ؟ أنا أيضاً مجموعي ليس مناسباً لذلك سأحول إلى الشعبة الأدبية في العام المقبل إن شاء الله ، لا تحزني يا حبيبتي سنجتهد في العام القادم إن شاء الله ونحقق ما نريد .

ـ أتمنى ذلك .

* * *

وبدأ العام الثانوي الثالث ، كانت زهرة وسارة ثنائياً رائعاً عرفته المدرسة ، فسارة قارئة القرآن في أول الإذاعة ، وزهرة تختم بالدعاء ، اشتركتا معاً في نشاط الرسم تحت إشراف الأخصائية الاجتماعية ، فكانت زهرة تلميذة نجيبة وتعلمت من سارة الكثير ، اقترن ذكر اسم الفتاتين ببعضهما ، جمعتهما طاعة الله ، قضت معها أوقاتاً رائعة ، نسيت فيها وحدتها التي طالما لازمتها .

وجاء يوم اختبار تلك الصداقة حينما بدأت زهرة يومها الدراسي كما اعتادت بالسلام على الأخصائية وسؤالها عن نتيجة مسابقة الرسم التي اشتركت هي وسارة فيها :

ـ صباح الخير يا أستاذة .

ـ صباح النور حبيبتي ، جيد أنك أتيت ، كنت سأطلبك الآن .

ـ خيراً إن شاء الله !

ـ لقد ظهرت نتيجة المسابقة وحصلتِ على المركز الأول على مستوى المحافظة وتم تصعيدك على مستوى الجمهورية .

ردّت بدهشة وتعجب :

ـ أنا أحصل على المركز الأول ؟! ! وماذا عن سارة ؟! !

ـ حصلت على المركز الثاني .

ـ كيف ؟! رسمي كان أقل من مستوى رسمها !

ـ هذا رأيك أنتِ ، ربما لجنة التحكيم كان لها رأي آخر .

ردت بفرح شابه القلق :

ـ حسناً ، وهل علمت سارة بذلك ؟

ـ لا ليس بعد .

ـ إذاً ، سأخبرها أنا .

انتظرت حتى بدء الفسحة ، فذهبت إلى سارة ، وإذ بها تجلس أمام فصلها في فناء المدرسة ومعها زميلة لها فسلمت عليهما وقالت بترقب :

ـ عندي لك خبر سار يا سارة ؟

ردت بفضول :

ـ حقاً ؟ وما هو ؟

ـ لقد ظهرت نتيجة المسابقة وحصلتِ على المركز الثاني فيها على مستوى المحافظة .

تهلل وجه سارة فرحاً وقالت لزهرة :

ـ حقاً ! الحمد لله ، كنت واثقة أن رسمتي ستحقق مركزاً في تلك المسابقة ، شكراً يا زهرة على ذلك الخبر السار .

انتظرت منها أن تسألها عن نتيجتها ، لكنها لم تفعل ، بل شغلتها فرحتها بمركزها عن السؤال وعادت للحديث مع زميلتها ، فتركتهما عائدة إلى فصلها وهي تشعر بحزن لأنها نسيت أمرها ، وقبل انتهاء الفسحة توجهت نحو المقصف لتشتري بعض الحلوى فالتقت بسارة أثناء خروجها من حجرة الأخصائية برفقة الفتاة نفسها ، فتوجهت مبتسمة إليها ، لكن سارة قابلتها بوجه متغير ، فاستفهمت منها وجاءها الرد اللاذع :

ـ لماذا لم تخبريني أنك مَن حصلت على المركز الأول في المسابقة ؟

ردّت بصوت حزين :

ـ أنت لم تسأليني يا سارة !

ـ لم أسألك أم أنك خشيت من الحسد ؟ وجئت تخبرينني بأني حصلت على المركز الثاني تقليلاً من شأني ، شكراً على كل حال ، ومبارك عليك .

صدمت زهرة من ردة فعل سارة وكأن أحدهم سكب فوق رأسها ماء ساخناً ، وقفت تنظر لسارة التي تركتها وغادرت في ذهول .

بعد صراع داخلي قررت معالجة الأمر ، فهي لن تخسر صديقتها الحبيبة بسبب حساسيتها المفرطة تلك ، كان يجب عليها إخبارها بنتيجتها وتترك حساسيتها جانباً ، فلا تدع للشيطان مجالاً ليفسد صداقتهما ، فقررت التحدث معها وقت الانصراف .

ـ لقد حدث سوء فهم أجهل مصدره ، كيف تظنين بي ذلك يا سارة ؟ كيف تتوقعين مني أن أتحاشاك حسداً ؟

ردّت بجفاء :

ـ وهل لديك تفسير آخر ؟

ـ أجل لدي . . إن كنتُ أخشى الحسد كما قلت لَما أخبرتك بنفسي عن نتيجتك ، لقد سررت بحصولك على المركز الثاني أكثر من سروري بمركزي الأول ، فالأهم عندي أننا حققنا أول مرتبتين ، لذلك أخبرتك بمركزك أولاً ، وكنت أتمنى لو سألتيني عن مركزي ، لكنك تناسيت أمري ، نسيت أمري يا سارة ، وهذا أحزنني ؟

وأدمعت عينها ، فشعرت سارة بصدق كلماتها وبأنها قد أخطأت في حقها ، فقالت بتأسف وارتباك :

ـ في الحقيقة عندما علمت أنك الأولى ولم تخبريني لم أفهم قصدك ، وكنت أنوي الاستفسار منك ، فقالت لي زميلتي أنك فعلت ذلك خوفاً من أن أحسدك وبأنك أنانية ، فشعرت بالغضب منك .

اتسعت عيناها مندهشة وهي تقول :

ـ معقول يا سارة ! صدقت كلام واحدة لا تعرفني ، ألم تقضِ معي أياماً طوالاً ، ألم نأكل معاً في طبق واحد ؟ إن أساءت هي الظن بي فهي معذورة لا تعرفني ، أما أنت فما عذرك ؟

طأطأت سارة رأسها أسفاً ثم قالت :

ـ معك حق ، لا أعرف كيف لم أنتبه لذلك ، سامحيني يا زهرة لقد أخطأت .

ـ لا عليك يا صديقتي فرصيدك بقلبي لن يتأثر بمثل هذا ، وصداقتنا أقوى من تلك المواقف ، ولكن رجاء تفهمي مكانتك عندي ، ولا تصدري حكماً علي دون الاستفسار مني ، أنا أحبك في الله يا صديقتي فلا تظني بي سوءاً يوماً ما .

ـ حسناً سأفعل .

وكان ذلك الموقف سبباً لتوطد علاقتهما أكثر فأكثر حتى كأنما هما توءم روحي ، وكانتا كذلك فعلاً ، فمواهبهما نفسها « قراءة القرآن ، الإنشاد ، الرسم ، كتابة الشعر » حتى في نتيجة الثانوية العامة حصلتا على المجموع نفسه ، وهل يحدث ذلك بالضرورة مع التوءم الحقيقي ؟!

المعسكر

عودة إلى الحاضر

(يونيه ٢٠٠٩ م)

جلست كما اعتادت على الأرض في زاوية بين فراشها وخزانة ملابسها ، احتضنت مفاصل قدميها بعد أن ألصقتهما بصدرها وخبأت رأسها ـ أو دفنتها كما تفعل النعامة ـ ظناً منها أنها بهذا قد انفصلت عن عالمها الخارجي ؛ لتغوص في أعماق ذاكرتها المكلومة وتسافر عبر الزمان للماضي . . وكانت الدموع هي تأشيرة السفر التي حلقت بها إلى هناك حيث كانت صغيرة .

لا تدري كم من الوقت مر عليها وهي على حالتها تلك . . صبغت مقلتيها بلون الدماء . . بكت كثيراً ، فذاك الشيء الوحيد

الذي صارت تتقنه ببراعة ، سنوات ربما تكون قليلة إلا أنها أحدثت بها الكثير .

لا تعرف هل يدها تبطش برأسها الآن لتؤذيها ، أم هي تحاول تنشيط العقل المتكاسل الذي قلما يتحكم في أفعالها .

ولولا ذلك الصوت المزعج لأبرحت هامتها ضرباً دون أن تشعر ، أبعدت يديها عن رأسها المترنحة في ملل ، وبحثت بيديها عن مصدر هذا الصوت ، فتذكرت أنه ما زال في حقيبة يدها ، قامت بتعب شديد وأخرجت الهاتف منها ، نظرت إلى اسم المتصلة فعاودتها الدموع التي كادت أن تتوقف ، فاشتغل غضبها وتهتك صوتها قائلة وهي تنظر لهاتفها :

ـ وماذا تريدين مني ؟ ألم تتخلي عني أنت الأخرى منذ تمت خطبتك ؟ فلتتركيني إذاً ، أتركوني جميعاً وارحلوا ، اتركوني وحدي ، اتركوني .

ثم بدأت توجه بطش يدها إلى صدرها المجهد توبخ قلبها :

ـ هل أنتَ سعيد الآن يا رفات قلبي لما آلت إليه حالتك ؟ هل ظننت أنك ستجد من تكون بديلة عن فقدانك نعمة الأخت ؟ لا يا عزيزي أنت مخطئ ، لقد حُكم عليك أن تحيا وحيداً ، وليس أمامك سوى الرضوخ أمام تلك الحقيقة ، ستظل وحيداً هكذا

بحالتك المهترئة تلك ، ولن تجد من تعيد ترميم تلك الصدوع العميقة ، اِرضَ بقضاء الله ، فلم يتبقَّ منك بداخلي غير أطلالك المهجورة ، بالكاد أتقوى بها على ما تبقى لي في تلك الحياة .

لقد قست عليه بما يكفي ، لقد أشفقت عليه ، إن لم تتمكن هي من تحمّل ذلك القلب الحساس ، من سيفعل ؟! بدأت تربت عليه ، وتحتضن أضلاعها ، ليس له ذنب ، هو فقط يبحث عن الاحتواء ، هذا كل ما في الأمر !

« هناك أناس في عالمنا قلوبهم مثل حبات الماس ، شفافة للغاية ، لكنها أيضاً حساسة جداً ، قد تتهشم في لحظة إهمال ، وقابلة للشرخ إذا تم التعامل معها بحدة ، تلك القلوب تحتاج معاملة خاصة ، لأنها أصبحت عملة نادرة ! »

* * *

هل هناك مفر من تلك الحال التي ابتلعتها في جوفها ولم تعرف كيف الخلاص منها ؟ كيف ستغير من نفسها ؟. . . ولكن لماذا تتغير ؟ ولمن ؟ هي سعيدة بتفردها بذلك ، ولا ينقصها إلا أن تجد من تحتويها كما هي ، تتحملها بعيوبها ومميزاتها .

اندمجت في مذاكرة المواد ، انشغلت قليلاً عما تسبب في تعبها ، وعقدت العزم على الحفاظ على ما تبقى بداخلها من قلبها

المكلوم ، وقررت ألا تتعلق بأخرى مهما حدث ، فلا يوجد في الحياة صديقة تحل محل الأخت . سلمت قلبها وأمرها لله ، لقد عجزت عن الحفاظ عليه ، ويكفي ما حدث !

ومع مرور الوقت صارت تتحرك بشكل طبيعي ، ولكن قلبها لم يعد كما كان ، فقط ينبض كي تحيا ، تتجه الآن نحو حجرة شؤون طلاب الكلية حيث استدعتها المسؤولة ، وأخبرتها بما لم تكن تفكر به يوماً :

ـ تنظم الكلية في بداية العطلة الصيفية معسكراً صيفياً لمدة خمسة أيام في معسكر خاص بالجامعة ، هل ترغبين في الاشتراك به ؟

صمتت في محاولة منها لاستعادة تلك الكلمات التي بعدت كل البعد عما توقعت ، فنظرت لها مستفهمة وقالت :

ـ هلا وضحت لي أكثر من فضلك ؟

ـ من ضمن أنشطة الجامعة أنها تنظم معسكراً صيفياً كل عام للطلاب ، هذا المعسكر يتم فيه العديد من الأنشطة ، من ضمنها الرسم ، لذلك أقترح عليك المشاركة فيه .

زمّت زهرة شفتيها ، أخذها التفكير ، ثم مطت شفتيها بيأس قائلة :

ـ لست أدري ، أعتقد أن أبي سيرفض ، لم يسبق لي المشاركة في مثل ذلك من قبل .

ـ حسناً ، هذا رقمي ، أخبريني في أقرب وقت إن كنت ستنضمين للمجموعة أم لا لأضبط العدد .

وأعطتها قصاصة صغيرة دوّنت عليها الرقم ، فأخذتها منها زهرة بشرود وقالت :

ـ فليقدّم الله ما فيه خير لي .

تركت حجرة رعاية الطلاب وهي تفكر في ذلك المعسكر الصيفي ، وفي داخلها رغبة ملحّة في الذهاب إليه ، فهي في حاجة ماسّة لأي تغيير يحدث في حياتها ، تحتاج أن تبتعد عن حياتها قليلاً لتعيد ترتيب أولوياتها ، ولترمم بنفسها ذلك القلب المريض ، هذه فرصة ممتازة لتحقق ما تسعى إليه ، ولكن كيف ستقنع والدها بذلك ؟ هي تعلم جيداً أن احتمال الموافقة ضعيف جداً .

« يا إلهي ، أنت وحدك تعلم معاناتي ، أرجوك ساعدني ، أحتاج بشدة لمثل ذلك هذه الفترة ، يا إلهي ساعدني ! » .

* * *

تحركت الحافلة حوالي الساعة العاشرة صباحاً ، جلست بجوار النافذة وهي لا تكاد تصدق ، هل هي في حلم أم إنها الحقيقة ؟

أسندت رأسها على ظهر المقعد وظلت تنظر إلى الطريق الذي تراه لأول مرة ، سافرت بعيداً بعيداً بخيالها إلى عالم لا يسكنه سواها ، عالم كلما زارها فيه زائر أفسده عليها وتركها تعيد بناءه ، وضعت كفها على قلبها وتنهدت :

ـ اطمئن يا صغيري ، ها أنا سأذهب بك إلى مكان استشفائك ، أعدك أنني سأحافظ بكل قوتي على ما تبقى منك ، سأستودعك الله ، فهو وحده من سيهتم بك ، ولكن هل ما زلت تحتفظ بسماتك المميزة أم أنك فقدتها مع من فقدتَ ؟

ـ زهرة ، هل أنت معنا ؟

انتبهت زهرة إلى صوت محدثتها فنظرت لها وقالت :

ـ هل تقولين شيئاً يا ميادة ؟

حركت ميادة رأسها لأعلى ضاحكة :

ـ يبدو أنك في عالم آخر .

أشعرتْها بحرج فقالت :

ـ لا أبداً ، أنا معك ، ماذا قلتِ آنفاً ؟

ضحكت ميادة مجدداً ، ساخرة ربما :

ـ أسألك هل هذه المرة الأولى التي تقومين فيها بتلك الرحلة ؟

ابتسمت ابتسامة جانبية ساخرة :

ـ بل هي المرة الأولى التي أخرج فيها من مدينتي أصلاً !

ـ حقاً ! أما أنا فذهبت إلى مدن مختلفة ، ولكن هذه الأولى لي من هذا النوع .

رجعت برأسها وأسندته على ظهر المقعد بعدما عقدت ذراعها أماماً ، ونظرت عبر النافذة قائلة :

ـ أرجو أن تكون رحلة موفقة لنا جميعاً .

ـ كنت أتمنى لو كانت هبة معنا في الفوج نفسه ، ولكنها ستذهب مع فوج آخر .

ـ ألسنا سنتقابل هناك جميعاً ؟

ـ أجل ، هي قالت ذلك .

أومأت برأسها :

ـ هذا جيد ، فأنا لا أعرف أحداً في فوجنا هذا سواكِ ، ولا أعلم في الفوج الآخر سوى هبة وعالية .

ـ وجودك في هذا الفوج يا زهرة هو مَن شجعني على الذهاب فيه .

التفتت إليها زهرة بابتسامة هادئة وقالت :

ـ وكذلك الأمر بالنسبة لي .

وبعد قليل وصلت الحافلة إلى هدفها ، ترجلت منها الفتيات ، فنظرت زهرة إلى المكان في ذهول ، ولمعت عينها في نشوة .

بوابة كبيرة كتب على جدار صغير أعلاها (معسكر الجامعة) ، لها مصراعان من الحديد ، عندما اجتازتها وجدت خلفها مساحة خضراء واسعة جداً ، محاطة بسور كبير أعلاه أسلاك شائكة ، انتشر فيها تجمعات من أشجار الزينة الصغيرة ، والورود الملونة ، مستطيلة الشكل ، مكشوفة ، بها ممرات ممهدة للسيارات وللمشاة ، واستراحات خشبية سداسية الشكل ، في طرفي تلك المساحة الخضراء مبانٍ متلاصقة صغيرة من طابق واحد ، مغطاة بحجر أبيض يميل إلى الأصفر ، أسقفها بلون الطوب الأحمر تشبه الرقم ثمانية ، تطل واجهة تلك المباني على تلك المساحات الخضراء ، يصل بينها ممر طويل له سور حديدي ، تفتح عليه أبواب تلك المباني الصغيرة ، يبتدئ وينتهي بدرج صغير ، وعلى الطرف الثالث ثلاثة مبانٍ متفرقة يتكوّن المبنى الواحد من طابقين .

تحركت الفتيات خلف المشرفة ، وتوجّهن نحو إحدى المباني ذات الطابق الواحد ، فأشارت لهن إلى الحجرتين المخصصتين لهن ، ولأن عدد الفتيات ثمانية والحجرة الواحدة بها ست أسرة

ثنائية الطوابق ، اختارت زهرة وميادة ومعهما شمس حجرةً مستقلة ، بينما باقي الفتيات في الحجرة الثانية . ولحسن الحظ كانت حجرتهن هي الحجرة المجاورة لحجرة هبة .

بعد قليل توجهت الفتيات الثلاثة نحو مبنى تسليم المفروشات ، فاستلمت كل واحدة وسادة وملاءة وغطاء ، ثم عدن إلى حجراتهن تفرشنها وتضعن الملابس بالخزانة المخصصة لكل واحدة منهن .

جلست كل فتاة على الفراش الذي اختارته لنفسها وبدأن في التعارف . وبعد وقت طلبت ميادة من زهرة أن ترافقها إلى حجرة هبة ؛ لتعرف كيف تسير الأمور معها ، فوافقت ، بينما بقيت شمس في الحجرة لحاجتها إلى النوم قليلاً .

طرقت ميادة باب الحجرة المجاورة ففتحت لها فتاة سمراء البشرة ، مليحة الوجه ذات ملامح طفولية ، وهي مقدمة الإذاعة المدرسية في المرحلة الثانوية ، ثم قالت :

ـ أهلاً ميادة ، أهلاً زهرة ، تفضلا .

تهللت أسارير زهرة وقالت :

ـ مرحباً عالية !

دخلت ميادة وتوجهت مباشرة نحو هبة ومعها زهرة ، فسلمت زهرة على هبة بفتور ، ثم جلسن يتسامرن جميعاً .

* * *

مضى ثلاثة أيام ، كانت تستيقظ فيهن زهرة فجراً وتوقظ ميادة وشمساً لأداء الصلاة ، فتذهب الأولى إلى هبة في حجرتها توقظها ثم تستأنف الفتيات النوم ، وفي السابعة صباحاً يتوجهن نحو الشاطئ يتمتعن بحرارة الجو البحرية اللطيفة ، بعدها يرجعن إلى المعسكر حيث موعد وجبة الإفطار ، تتجه الفتيات نحو المطعم معهن البطاقات الخاصة بالطعام ، ثم تجلس زهرة في الحجرة مع رفيقتيها تنجز صحيفة الحائط المطلوبة منهن ، وفي تمام الساعة الثالثة يتوجهن إلى المطعم لتناول وجبة الغداء ، بعدها ترجع زهرة وميادة وشمس إلى حجرة هبة وعالية وبقية الفوج يتسامرن معاً أو يجلسن في حديقة المعسكر حتى موعد النوم .

* * *

وفي مساء اليوم الثالث ذهبت زهرة إلى المشرفة لجلب بطاقات الطعام الخاصة باليوم الرابع وحينما عادت سألتها ميادة :

ـ ها ؟! هل حصلت على بطاقات الطعام يا زهرة ؟

أجابتها زهرة وهي تمسح عينها بقوة :

ـ أجل .

اقتربت منها ميادة وقالت :

ـ هل أنت بخير يا عزيزتي ؟

ـ لا ، أشعر بأن أحدهم ألقى في عيني ملحاً ، إنها تؤلمني بشدة . . . وظلت تفرك عينيها .

أسرعت شمس وأحضرت لها كوباً من الماء كي تغسل عينها ، فأخذته منها ، وكلما وضعت الماء في عينيها ازداد الألم ، فقالت زهرة متوجعة :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ، أبهذه السرعة وقع أثر كلماتها علي ؟

ثم جلست على الفراش تغطي عينيها بكفيها في ضيق .

اقتربت منها ميادة واحتضنتها بذراعها وقالت بأسى :

ـ ما الذي حدث ؟ كنتِ بخير قبل قليل .

رفعت زهرة رأسها ونظرت بعينيها الداميتين وقالت مستنكرة :

ـ سأقص عليك ما حدث ولك الحكم ، لقد ذهبتُ كما طلبتِ مني لأحضر من المشرفة بطاقات الغد ، عندما لمحتني نادتني « أهلاً يا ذات العينين الخضراوين ، أما آن لعينيك أن ينضجا ؟! » ،

شعرتُ بضيق من مزاحها ، وما أن تركتها حتى شعرت بقذى في عيني .

كانت تتحدث وميادة وشمس تنصتان بترقب ، حتى وصلت عند تلك النقطة ، فضربت ميادة كفاً بكف منزعجة وقالت :

ـ والله لقد أصابتك بعينها ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

بعد قليل شعرتْ بصداع شديد ، فجلست على فراشها تبكي من الألم ، فتركتها ميادة بصحبة شمس وغادرت الحجرة ، أقبلت برفقة هبة ، وما أن نظرت إلى عينيها الداميتين حتى أشفقت عليها بشدة واحتضنتها بيديها ، ونظرت مشفقة إلى عينيها ، أمسكت يديها واحتضنتها بين كفيها ، ظلت تقرأ عليها الرقية الشرعية وزهرة كما المسحورة في حالة سكون مبهم ، أو ربما هي حالة ذهول !

ـ نامي الآن ! ربما تهدأ عينك ، وسآتي غداً أطمئن عليك .

تركتها وخرجت من الحجرة ، بينما ظلت زهرة تتابعها بعينيها المصابة وكأنها انتبهت لتوّها أن هبة صديقتها منذ ثلاث سنوات !

وضعت زهرة رأسها على وسادتها وهي تبكي من وجع عينها ومن ذلك الشعور الذي في قلبها والذي تعلم جيداً عقباه .

* * *

وفي فجر اليوم الرابع استيقظت على صوت هبة التي جاءت لتطمئن عليها ، فنظرت لها بعينها وهي تحاول فتحها بصعوبة ، امتعض وجه هبة أسفاً وقالت :

ـ يا الله ! لقد اشتدت إصابة عينيك وصارتا منتفختين ، سامح الله مَن تسبب لك في ذلك .

نظرت لها زهرة وقالت بألم :

ـ هل معك أي مسكن يا هبة ؟ رأسي ما زالت تؤلمني .

ـ معي ولكن يجب أن تأكلي أولاً ، فأنت آخر ما تناولته كان غداء الأمس .

ـ ليس لدي شهية لأي شيء .

ردت بحزم :

ـ لستِ مخيّرة .

تركتها وغادرت ، وبعد قليل عادت ومعها شطائر أعدتها لها .

ـ تناولي هذه أولاً ، ثم أعطيك المسكّن .

وجلست بجوارها تراقبها حتى انتهت من تناول إحدى الشطائر بمعاناة شديدة ، ثم أعطتها واحدة من الحبوب المسكنة فتناولتها

منها ، ثم قامت لتصلي الفجر قبل الشروق بقليل وبعدها عادت إلى النوم .

* * *

وفي وقت الظهيرة سمعت أصوات الفتيات يتمازحن خارج الحجرة ، بينما كانت تنهي المجلة المطلوبة منها ، فدفعها الفضول إلى استكشاف الأمر ، فتحت باب حجرتها فوجدت هبة وعالية تقومان بربط حبل على طرف السور الحديدي ليضعا عليه ثيابهن المبللة إثر حملة غسيل مكثفة قامتا بها ، فوجدت نفسها تمسك بهاتفها لتصوّر ذلك المشهد ، وتقمصت دور المحاور الصحفي معها ، وانقلب المشهد إلى مشهد كوميدي ساخر من الدرجة الأولى . أخذت زهرة تركز في تصويرها على هبة وردود فعلها ، كيف تضحك ، كيف تساعد عالية في نشر الملابس .

« ما هذه الروح البريئة التي تسكن كيانك يا هبة ؟ ليتني أصير مثلك يوماً ، أتعامل مع الحياة بتلك العفوية التي تبدين عليها » ، ظلت تراقبها وتصوب كاميرا الهاتف عليها أكثر ، تضحك من عفويتها وطفولتها . رغم إصابتها إلا أنها نسيت ذلك وقت التصوير .

ـ يا زهرة ، ألم تسمعيني ؟

التفتت فجأة إلى شمس التي يبدو أنها تناديها منذ زمن ، بينما

كانت هي منشغلة بتصوير هبة ، قالت :

ـ عفواً ، ماذا كنت تقولين ؟

ـ كنت أبلغك أن المشرفة تطلب الانتهاء من الصحيفة اليوم لتعلّقها مساء في معرض المعسكر .

عاودت النظر إلى الهاتف وقالت بذهن شارد :

ـ حسناً ، لقد أوشكت على الانتهاء منها .

ثم أكملت تصوير المشهد حتى انتهت هبة وعالية من نشر الثياب ورجعتا إلى حجرتهما لتنجزا صحيفتهما الخاصة .

دخلت إلى حجرتها وهي تتمنى في تلك اللحظة لو كانت ضمن فوج هبة لتشاركها في إنجاز صحيفتهن ، ثم مكثت على صحيفتها تنجز مهمتها فيها ، لتكمل باقي الفتيات الخطوات المطلوبة من كل منهن ، وعند العصر كانت قد انتهت من صحيفتها وسلمتها للمشرفة ثم توجهت ومعها ميادة وشمس إلى حجرة هبة وزميلاتها اللواتي لم ينجزن صحيفتهن بعد .

وقفت زهرة بحرج أمام هبة وعالية وباقي المجموعة وقالت :

ـ يبدو أنكن ما زلتن منشغلات في عملكن ، هل سيعطلكن تواجدنا ؟

نظرت هبة بابتسامتها العفوية قائلة :

ـ بالطبع لا ، وحبذا إن ساعدتينا .

كانت تتمنى سماع ذلك الرد ، طرب قلبها بشدة وسري عنها ما كانت تعاني منذ زمن في لحظة واحدة ، جلست هي وصاحبتاها على الأرض المتناثر عليها الخامات المستخدمة في عمل الصحيفة . . . ورق مقوى ملون ، وشرائط لاصقة ، ألوان مائية وشمعية ، صور من المجلات ، فكانت زهرة بجانب هبة يقابلها عالية التي تفصلها عن هبة ميادة .

زهرة : أتعلمين يا عالية حينما أراك أتذكر من ؟

قالت عالية وهي تمسك بيمينها المقص تقص به إحدى الشرائط الملونة :

ـ من ؟

أجابتها زهرة وهي تأخذ القصاصة منها وتلصقها في موضعها بالمجلة :

ـ صديقتي نهلة ، هل تذكرينها ؟

صمتت عالية قليلاً ثم قالت :

ـ أجل أذكرها ، إنها فتاة طيبة، كنت ألتقي بها أقداراً، وكانت من

ضمن فتيات الإذاعة المدرسية فترة قصيرة ، لكن لم يدر بيننا حوارات خاصة ، لكن لماذا أذكّرك بها ؟!

ـ كانت معجبة جداً بشخصيتك ، وكانت تتمنى لو تقرّبت منك .

رفعت عالية حاجبيها تعجباً وقالت بطفولية :

ـ حقاً ! ، ولماذا لم تفعل ؟

ابتسمت زهرة وقالت :

ـ لأن تلك هي شخصيتها ، لا تملك الشجاعة الكافية لتصرح بحبها لأحد .

ـ هل ما زالت عينك تؤلمك يا زهرة ؟

انتشلتها هبة بسؤالها هذا من بئر الذكريات الذي كاد أن يبتلعها في جوفه لمجرد ذكرها اسم نهلة ، فالتفتت إليها ونظرت عينها إلى الفراغ قائلة :

ـ أشعر بتحسن طفيف ، الحمد لله على كل حال .

كان وقتاً ممتعاً قضته بصحبة هبة وعالية وزميلاتهما ، وخاصة بعدما اقترحت بعض الأفكار في صحيفتهن والتي لاقت ترحيباً منهن .

* * *

وجاءت لحظة الفراق ، واستعد كل فوج من الفتيات لمغادرة المعسكر الذي كان شاهداً على ذلك التغير الذي طرأ على حياتها ، وكان شاهداً أيضاً على مشاعر الإخاء التي عاشتها وسط هؤلاء الفتيات . شعرت زهرة بحاجتها الماسة للعودة برفقة هبة ؛ فهي تريد البقاء بصحبتها أطول فترة ممكنة . استأذنت من المشرفة أن ترجع في الحافلة الخاصة بفوج هبة ، فسمحت لها بذلك .

« يا إلهي ، لا أجد شيئاً يصف حالتي تلك سوى أن الله أذن لقلبي الصريع أن يتعافى ، أتمنى ألا يبتلى مجدداً بفقدانك يا هبة » .

ـ هل أنت نائمة يا زهرة ؟

قالتها هبة وهي تربت على كتف زهرة بحنو ، رفعت زهرة رأسها بهدوء ، وظهر شبح ابتسامة على وجهها وهي تقول :

ـ لا ، لكنني أشعر بألم في رأسي ، وعيني تؤلمني فأغمضتها لتهدأ قليلاً .

ثم عادت برأسها كما كانت على كتف هبة .

فلتنسَ ما فات

لن تبحث في هبة عن الأخت التي تفتقدها في حياتها ، فقد أدركت أن ما تفقده لن تستطيع الحصول عليه ، فلتعطي هي ما تفقده ، من قال فاقد الشيء لا يعطيه ؟! ستبحث فقط فيها عن صديقة صدوقة تأخذ بيدها إلى الجنة ، لتكون وهي ضمن السبعة الذين سيظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، هكذا أفضل ، لكن ما زال الماضي يطاردها بالنهاية نفسها ، فاستودعت الله قلبها وتركت الأمر كله له .

بعد المعسكر بأسبوع نظمت الكلية دورة للحاسوب اشتركت فيها هي وهبة ، وخلال تلك الدورة شعرت زهرة بأن شخصية هبة شخصية رائعة ، تتعامل مع الحياة ببساطة ، عكسها تماماً ، فتاة تحيا ببراءة الطفولة ، لا تعرف النفاق ولا التكلف ، واضحة جداً ، تنطق بما تشعر به ، رغم كونها في المرتبة الأولى بين زميلاتها إلا أنها في قمة التواضع ، كل من في القسم يعرفونها سواء أكانوا أساتذة أو طالبات أو عمالاً ، تخدم الجميع بما تستطيع ، رائعة بكل المقاييس ، والعجيب أنها تشبه نهلة في صفاتها التي أحبتها فيها زهرة ، وتشبه سارة في كونها وزهرة يمتلكن المواهب نفسها .

كانت لها توءماً أخرى ، توءم روحيّ ، فشعرت أن الله قد أرسلها إليها للتغير . يكفيها من الألم ما قد عاشت ، فالحياة فيها من الصعاب ما يفوق ما مرت به بين صويحباتها بمراحل ، فإن كانت قد سقطت بسبب فراقهن فهل ستموت عند أول مشكلة حقيقية تواجهها ؟!

مر الأسبوع المخصص لدورة الحاسوب ، وانتهى اليوم الأخير ، وها هي زهرة تتجه نحو موقف الحافلات لتستقل الحافلة التي سترجع إلى مدينتها بها ، فقد اقتربت الشمس من المغيب .

كان هناك زحام شديد في الموقف ، وما أن أتت حافلة شاغرة حتى تكالب عليها الركاب ، فتراجعت زهرة كي لا يصدمها أحدهم ، ثم بدأ الزحام يهدأ شيئاً فشيئاً إلى أن أتت حافلة أخرى ، فوقف ذلك الشاب الأسمر ـ طويل القامة ، نحيف الجسد نسبياً ـ أمام الحافلة وفتح الباب ثم تراجع خطوة ، أشار بيده لزهرة أن تركب ؛ كي لا يصطدم بها أحدهم ، شعرت بحرج شديد ، صعدت الحافلة ، جلست في مكانها المفضل بجوار النافذة وقد احتقنت وجنتاها خجلاً بعدما صعد ذلك الشاب وجلس بجوارها لكنه جلس على مسافة منها ، وقبل أن تتحرك الحافلة ترجل منها الشاب نفسه ليفسح المجال لتلك الفتاة التي كانت تبحث عن مكان مناسب في الحافلة ، صعد مجدداً ليجلس على مقعد منفصل عن الفتاتين ولكنه بجوارهما .

ابتسمت زهرة لتلك الفتاة التي تعرفت عليها خلال دورة الحاسوب والتي تجلس بجوارها في الحافلة ، اكتفت بالابتسامة الخالية من أي مشاعر ، لا تدري لماذا لم ترتح لها ، لم تعجبها طريقة تعاملها مع هبة ، قلبها حدّثها بأمر ما جعلها تنزعج لمجرد أن تراها .

بدأت الحافلة تتحرك ، فأسندت زهرة رأسها على النافذة وأخذت تتذكر ذلك الحوار الذي دار بينها وبين هبة قبل قليل أثناء تناولهما الغداء معاً .

ـ « أنا سعيدة جداً يا زهرة بذلك الوقت الذي كنا نقضيه معاً خلال هذا الأسبوع .

ـ وأنا أيضاً يا غاليتي سعيدة جداً جداً ، كنت أخشى ألا نجتمع بعد المعسكر .

ـ وها نحن ذا نتقابل يومياً يا عزيزتي .

ـ شكراً لله الذي قدّر لنا ذلك .

ـ أتعلمين يا زهرة! من لا يتعامل معك عن قرب لن يفهم شخصيتك ، وسيفسر أفعالك وتصرفاتك بشكل خاطئ ، فقد يفهمها البعض غروراً أو تكبراً .

ـ وهذا يحدث فعلاً يا صديقتي ، لكم تعرضت لمواقف كثيرة أسيئ فهمي فيها ، وتَجنبني أناسٌ وأوجعني آخرون ، وهناك من لو بيده أن يمحيني من حياته لفعل لمجرد أنه أساء فهم تصرفاتي وكلامي أو لأنه يغار مني . . . » .

اغرورقت عيناها عندما تذكّرت باقي الحوار . . .

« ـ يكفيني يا هبة حب من عرفوني عن قرب ، أما الآخرون فموقفهم مني لا يعكس سوى ما في قلوبهم ، والله وحدة مطّلع على القلوب ، ويكفيني أنه مطّلع على قلبي » .

ثم ما لبثت أن ابتسمت حينما تذكرت كيف همّت هبة أن تتحدث ، فأمسكت هي الملعقة وملأتها بالطعام ثم وضعتها في فم هبة دفعة واحدة حتى لم يعد في استطاعتها أن تتحدث وقالت :

ـ هل سأظل طوال الوقت أتحدث بينما تلتهمين أنت الطعام ؟ ريثما تستطيعين بلع ملعقة الطعام تلك . . أكون قد تناولت شيئاً من طبقي الخاص قبل أن تمتد إليه يدك » .

وتحولت الدمعة إلى بسمة تفاؤل هادئة عندما وصلت بذاكرتها عند تلك النقطة ، ونظرت بانتباه إلى الطريق ، فوجدت أن وقت نزولها قد اقترب ، وبعد ثوان وجدت تلك الفتاة التي تجلس بجوارها تهمس إليها قائلة :

ـ لا تدفعي الأجرة ، لقد دفعتها لك يا زهرة .

التفتت زهرة متفاجئة من تلك الفتاة وقالت في حياء شديد :

ـ لا ، لا ، هذا واجبي أنا .

وأدخلت يدها في حقيبتها لتخرج النقود كي تعطيها لها فمنعتها الفتاة من ذلك ، نظرت إليها زهرة ووجهها مشتعل خجلاً وقالت :

ـ حسناً ، أشكرك جداً .

قالت الفتاة :

ـ هل منزلك قريب من هنا ؟

ـ أجل ، عند المدخل .

ـ ولماذا تركبين هذه الحافلة ولم تركبي تلك التي وجهتها مدخل المدينة ؟

أمسكت زهرة حقيبتها استعداداً للنزول وقالت :

ـ لأنني لم أجد سوى تلك ، وهي تمر قريباً من وجهتي .

ـ هلا أعطيتِني رقمك ؟

قالت زهرة على عجلة من أمرها وهي تهم بالنزول :

ـ أعتذر يا (وهم) ، ليس أمامي متّسع من الوقت ، سأنزل حالاً ، يمكنك أخذه من هبة إن شئت .

توقفت الحافلة فترجل منها الشاب ليفسح الطريق لزهرة ، فنزلت على استحياء بعد أن سلمت على زميلتها .

بعد دقائق . . . وصلت الشاحنة عند الموقف ، نزل منها ذلك الشاب الأسمر وقد غمر وجهه السرور ، لقد وجد تلك التي كان يبحث عنها منذ تخرجه من الجامعة ، أجل وجد فيها كل المواصفات التي كان يريدها ويريدها كل شاب مثله ، وبينما هو يسير متجهاً نحو منزله رن هاتفه النقال فأخرجه من جيب سرواله وأجاب :

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ها ؟! ما الأخبار يا بني ؟

ـ الحمد لله يا أبي ، كان اللقاء موفقاً .

ـ الحمد لله ، وأين أنت ؟

ـ على بعد خطوات من المحل ، سآتيك حالاً .

بعد قليل وصل الشاب إلى محل والده الحاج (صابر) فسلم عليه ، ثم جلس يقص عليه ملابسات اللقاء الذي حدث معه ، وبعد وقت استأذن في الرجوع إلى البيت الذي يبعد عن المحل خطوات ؛ ليرتاح قليلاً ، فأذن له . غادر وكأن شريط حياته يعيد نفسه في رأسه ، كم تحمّل والداه من المعاناة كي يصل هو إلى ما وصل إليه اليوم ، رجل بسيط يعمل خياطاً سهر الليالي الطويلة ليوفر لأبنائه كل

ما يحتاجونه في مشوارهم الدراسي . . لطالما حرم نفسه من حاجيات ضرورية ليؤمّن لأبنائه ما يطلبون ! لكم كافح وصابرَ هو وزوجته ليصل أبناؤهم إلى ما وصلوا إليه ! وها هو آخر العنقود قد تخرج من كلية الهندسة بتفوق ، وبدأ يشق طريقه الخاص .

صعد الدرج المؤدي إلى شقته وطرق الباب بخفة ، أسرع ذلك الطفل الصغير ذو العامين يحاول فتح الباب ولكنه لم يتمكن ، حملته أمه لتساعده على فتحه ، وما أن فتحه حتى هلل وقال (ليان) .

ابتسم عندما سمع اسمه تحول من (ريان) إلى (ليان) على لسان ذلك الطفل الجميل ، حمله من أخته الكبرى (حنان) قائلاً :

ـ أهلاً يا بطل .

حنان : عندما سمع وقع أقدامك على السلم أسرع تجاه الباب ليستقبلك .

حنان في الثانية والثلاثين من عمرها ، بيضاء البشرة ، بنية العينين ، متوسطة الطول ، ترتدي نظارة طبية ، عُينت معيدة بالجامعة فور تخرجها وها هي الآن تعد رسالة الدكتوراه .

جلس ريان على الأريكة ووضع الطفل على قدمه اليمنى ، فخرجت أمه من المطبخ بعد سماعها صوت القادم وقالت في لهفة :

ـ حمداً لله على سلامتك يا بني ، ها ؟! ما الأخبار ؟

ـ الحمد لله ، لقد وفقني الله في هذه المقابلة .

قالت حنان بفضول : هيا ! قصّ التفاصيل المملّة حالاً .

ابتسم ريان وقال :

ـ دعيني ألتقط أنفاسي أولاً .

خرجت (مودّة) الأخت الأصغر من حجرتها بعد أن استيقظت من نومها ونظرت لريان بعين نصف مفتوحة وقالت :

ـ هل أتيتَ يا ريان ؟

مودّة في السابعة والعشرين من عمرها ، قصيرة القامة ، قمحية البشرة ، بشوشة الوجه ، ترتدي أيضاً نظارة طبية ، تم تعينها هي الأخرى معيدة بالجامعة لكن في قسم آخر ، وعلى مشارف مناقشة الماجستير .

نظر إليها ريان مقلداً عينيها الناعستين وقال ساخراً :

ـ لا ، ما زلت في الطريق ، أمامي نصف ساعة وأصبح في البيت .

انتبهت فجأة لمزحة أخيها وتعالت ضحكتها قائلة :

ـ سامحك الله ، كان النوم في عيني ممتعاً جداً .

ردّ مازحاً :

ـ ولماذا أزعجتِ نفسك وقمت من الفراش ؟ عودي وأكملي أحلامك الوردية . . .

وأشاح لها بكفّه مستخفّاً بها ، عقدت يديها أمام صدرها تأففاً وقالت :

ـ للأسف أفلت من عيني بقايا النوم .

هز رأسه تعجباً عندما قالت :

ـ هيا أخبرنا عن مقابلتك .

رفع حاجبه الأيسر ونظر بطرف عينه قائلاً :

ـ وكم ستدفعين في المقابل ؟

حكّت جبينها متظاهرة بالتفكير ثم قالت :

ـ عشرة قروش ، ها ؟! عرضي مغرٍ أليس كذلك ؟

ضرب كفّاً بكف وضحك نصف ضحكة قائلاً :

ـ عشرة قروش ! ولماذا هذا التبذير ؟

سحبت مودة أحد كراسي مائدة الطعام وألقت بجسدها عليه ، ثم قالت بتمطّع :

ـ توقف عن المراوغة ، وحدثنا عن المقابلة .

وضع ريان ساقه اليمنى فوق اليسرى ، وزمّ ياقة قميصه قائلاً بزهو :

ـ عندما ذهبت إلى المكتب قابلت خطيبك عند المدخل ، ثم صعدنا معاً إلى المهندس الذي كان في انتظارنا ، وبعد التعارف واطلاعه على شهادتي شرح لي طبيعة العمل ، واتفقنا أن أستلم عملي بعد غد إن شاء الله .

مودّة : وهل يبدو كما حكى عنه ؟

ريان : أجل ، فهو مهندس كبير في السن والخبرة وله هيبته ، مكتبه يعد أكبر مكتب استشاري في المدينة الجديدة ، موقعه أيضاً ممتاز ، فهو يبعد مترات معدودة عن الجامعة .

حنان : مبارك يا حبيبي ، أنت تستحق ذلك وأكثر .

قالت مودة في محاولة منها لإغاظته :

ـ أتمنى أن تشرفنا ، لا أريد أن يشتكي إلى خطيبي منك .

فنظر حوله كأنما يهشّ بعوضة بيده ، ولم يردّ عليها .

أم ريان : تلقينا منذ قليل اتصالاً من خالك ، لقد خُطبتْ ابنته .

أم ريان ، امرأة في منتصف عقدها الخامس ، ممتلئة الجسم قليلاً ، مليحة الوجه ، عيناها كلون العسل الصافي ، ربة منزل ، طيبة القلب .

نظر ريان لأمه وابتسم ابتسامة جانبية ، وهز رأسه أعلى وأسفل مرتين ، ثم قال :

ـ أسأل الله أن يتمم لها على خير .

ـ أما أنت فسأختار لك زوجتك المناسبة بنفسي .

نظر ريان إلى أمه مستنكراً وقال :

ـ يا أمي أنا لا أنوي الارتباط بإحدى أقاربنا ، كلهن عندي كمودة وحنان ، زوجتي المستقبلية سأختارها وفقاً لشروطي الخاصة .

قالت مودة بمكر :

ـ يبدو أن هناك من وقعت عليها عينك يا عزيزي ، هيا اعترف .

ـ وهل يرضيك أن تقع عيني على واحدة وأظل أنا بدون عين ؟

قامت مودة من مكانها بغيظ تتجه نحوه قائلة :

ـ سأبرحه ضرباً ، لا تمنعيني عنه يا حنان .

صدر ريان يديه أمامه ليتفادى ضربات مودة وقال :

ـ أيتها المتوحشة . . ابتعدي عني .

نظر لهما الطفل وظنها جادة في أفعالها وكاد أن يبكي ، فقالت حنان :

ـ لقد أخفتما الولد ، تعال يا حبيبي لا تخف .

وقامت فانتشلته من ريان واحتضنته لتشعره بالأمان ، فقالت مودة لريان :

ـ سأتركك فقط من أجل ذلك الصغير .

حكّ ريان رأسه بيده اليمنى وقال :

ـ الحمد لله ، لقد كتب لي عمر جديد . . يا فضولية ليست هناك من أفكر فيها ؛ فقلبي هذا ـ وأشار إلى صدره ـ لن أعطيه لأية واحدة قبل أن أخضعها لاختبارات مكثفة .

عقدت مودة يديها أمام صدرها وأسندت ظهرها على الخزانة المجاورة للأريكة ونظرت بمكر :

ـ هل تريد إقناعي أنك لم تعجب بإحدى زميلاتك في الدراسة ؟

قطب ريان ما بين حاجبيه وقال نافياً برأسه :

ـ طبعاً لا ، ربما أكون قد أعجبت بإحداهن ، لكن لم أفكر فيها كزوجة أبداً ، مجرد إعجاب بصفة معينة فيها وحسب .

قالت مودة بفضول :

ـ يا ترى ! ما مواصفات فتاة أحلامك أيها الفارس المغوار ؟

سرح ريان بطرف عينه ثم قال :

ـ أول شرط ، ألا تكون قصيرة مثلك .

هجمت عليه مودة وأمسكته من مجمع قميصه وقالت بانفعال مصطنع :

ـ بل ستكون قزمة .

ضحك ريان وضمها إليه يحتضنها وقال :

ـ موافق إن كانت تشبهك أيتها القزمة .

ضحكت أم ريان وهي تقول :

ـ على العموم ، هذا الكلام سابق لأوانه ، يجب أن تكوّن نفسك أولاً ، وعندها ستجد من تناسبك .

ريان : أنت على حق يا أمي ، الطريق أمامي طويل .

* * *

يـا طيـور الشـوقِ هيـا ننشـدِ الحـبَّ سـويّـا
هـاك قلبـي قـد أتـاكُـمْ يعـزفُ الألحـانَ فيّـا
فلْتُلبّـوا صَـوتَ حـبٍّ صـار فـي أركـاني حيـا
يـا طيـور الشـوق إنـي للهـوى صـرت أغنـي
أعـذب الألحـان حتـى قـد يغـار الصحـب منـي
فلتقـوديني رجـاء حيـث بستـان التمنـي
يـا طيـور الشـوقِ قلبـي صـارَ للعِشـقِ مُلبّـي

حيـنَ يَـدعـونـي تَعـالَـي تَـذهـبُ الأَضـلاعُ قَبلـي
فـاعْلَمـي يـا طَيـرُ أنِّـي قَـد جَعلـتُ الحـبَّ دَربـي

أغلقت دفتر أشعارها برضاً بعدما دوّنت قصيدتها الجديدة المحمّلة بمشاعرها الصافية ، فأخيراً انتهت معاناتها تقريباً .

* * *

ـ أجل ، ستنظّم تلك المسابقة في جامعة الزقازيق .

نظرت زهرة إلى هبة بوجوم ، ثم أطلقت إلى مسؤولة رعاية الطلاب نظرة ، وقالت :

ـ وكيف أقنع أبي بهذا هذه المرة ؟

ـ إنها مسابقة تستحق سفرك إليها ، ستشارك فيها جميع جامعات مصر ، وأنت مَن ستمثل كليتنا فيها في الشعر .

ـ ولكن يا أستاذة أنا لست ماهرة في الشعر للدرجة الكافية كي أشارك في مثل هذه المسابقة .

نظرت لها هبة معترضة وقالت :

ـ بل أنت ماهرة بالدرجة الكافية . . لديك الموهبة ، والصور الخيالية لديك قوية ، وإن كنت تقصدين الوزن فسيتولى الدكتور أحمد ضبطه لك .

أقنعت تلك الكلمات زهرة وعقدت العزم على أن تفاتح أباها في ذلك ، وخاصة أنه يشجعها دائماً أن تنمّي مواهبها وتشارك في المسابقات .

خرجتا من حجرة الشؤون فالتقتا بوهم في الممر المؤدي إلى القاعات ، أقبلت عليهما بابتسامتها المزيفة وقالت :

ـ هبة ! كنت أبحث عنك ، أين كنت ؟

أجابتها هبة ببراءتها المعتادة :

ـ كنت في حجرة رعاية الشؤون .

سألت هبةَ مستدرجة :

خيراً ؟!

ـ كانت تخبرنا عن مسابقةٍ ستعد في جامعة الزقازيق .

نظرت وهم إلى زهرة بابتسامتها نفسها وقالت :

ـ وهل ستشاركين فيها يا زهرة ؟ (تسأل وتخشى سماع نعم ، تسأل وتتمنى لو قالت لا) .

ـ لست أدري ، ربما يعترض أبي .

ـ حسناً ، كنت ذاهبة لأشتري شيئاً لي ، هل أحضر لك شيئاً معي يا هبة ؟

ردّت بودّ : لا يا وهم ، شكراً .

تركتاها وأكملتا السير نحو القاعة ، نظرت لهما وهم والغيرة تفصح عن نفسها فعدلت عن فكرة الشراء وعادت إلى القاعة ، ثم جلست في المقعد الأمامي وقالت لهبة :

ـ لقد حجزت لك هذا المكان يا هبة .

ـ شكراً يا وهم ، خذي حقيبتي ودفاتري جانبك أيضاً .

ـ بكل حب عزيزتي .

* * *

ـ هل سيوافق والدك على سفرك إلى الزقازيق ؟

سألت وهم زهرة وهما في طريقهما نحو موقف الحافلات :

ـ أعتقد أنه لن يمانع ، هكذا يحدثني قلبي .

ـ إن وافق ورافقتِها رجاءً اهتمي بها ، فهي الأقرب إلى قلبي .

بعد فترة صمت قالت وهم :

ـ أتعلمين ! منذ الفرقة الأولى وأنا أحب هبة جداً ، ولكن لم يكن لدي الشجاعة الكافية لأتقرب إليها .

نظرت زهرة على الطريق بضيق ، تمنت لو تركتها ، وظلت تحدث نفسها :

« وطبعاً عندما ظهرتُ أنا في حياة هبة ظهرت شجاعتك في يوم وليلة ، لا يا وهم . . من يحب بصدق لن ينتظر ثلاث سنوات ليعلن عن ودّه فجأة ، حبك لهبة ليس صادقاً ولن يدوم » .

وهم : هل يمكنك مساعدتي يا زهرة في الوصول إلى قلب هبة ؟

بغتت زهرة من هذا السؤال ، فنظرت لها بحدة تحاشتها وهم ونظرت إلى الطريق ، فقالت زهرة بهدوء يستر عاصفة من الغضب :

ـ لا لن أساعدك ، هي زميلتك وتقضين معها أغلب الوقت . إن كنت تريدين التقرب منها فاجتهدي بنفسك لتصلي إلى قلبها ولا تستخدميني كوسيط .

ـ حسناً ، ها قد وصلنا ، أتركك الآن ، فالحافلة التي سأستقلها حضرت .

نظرت زهرة حولها فإذ بها في موقف الحافلات ، فسلمت على وهم بقلب فاتر وقالت :

ـ حسناً ، انتبهي لنفسك ، وعندما تعودين إلى البيت أخبريني .

ـ سأفعل بالتأكيد .

صعدت وهم الحافلة المتجهة نحو قريتها ، بينما توجهت

زهرة إلى مكان الحافلة التي ستستقلها فوجدت واحدة في الانتظار ، ركبت فيها وجلست بجوار النافذة ولم تلتفت إلى ذلك الشاب الأسمر الذي يجلس خلفها مباشرة .

بدأت الحافلة تتحرك فأغمضت زهرة عينيها لتستعيد هدوءها بعد تلك الجرعة المكثفة من الغضب التي تجرعتها بسبب وهم ، فدمعت عينها وشعرت بضيق في تنفسها ثم فتحت عينها ونظرت إلى السماء وظلت تناجي الله .

ـ الأجرة إذا سمحتِ .

انتشلت تلك الجملة زهرة من تفكيرها فأخرجت ورقة نقود من حقيبتها وأعطتها لذلك الشاب دون أن تلتفت إليه .

ـ عفواً ، الأجرة ناقصة يا آنسة .

شعرت زهرة بحرج شديد وجال بخاطرها :

ـ ناقصة ! يا إلهي يبدو أنني ركبت الحافلة الخطأ ، لا بأس ! فهذه أيضاً ستمر من طريقي .

أخرجت من حقيبتها باقي الأجرة وأعطتها إلى الشاب دون أن تلتفت إليه ثم عادت إلى وضعها السابق تنظر إلى الطريق وتحدث نفسها ، إلى أن أخرجها من تأملها صوت الهاتف الذي أتى من

خلفها ، والذي أسكته ذلك الشاب الأسمر عندما أجاب على المتصل :

ـ السلام عليكم ، أنا في طريق عودتي يا أبي ، أجل لقد استأذنت من المهندس فلم يمانع ، حسناً لا تقلق ، سلام .

بعد عشر دقائق نزلت من الحافلة وعادت إلى منزلها فوجدت أمها مستلقية على الأريكة .

ـ جيد أنكِ أتيت الآن ، فنحن لم نتناول غداءنا بعد .

ـ الساعة الرابعة عصراً يا أمي ، لماذا تأخرتم ؟

ـ كان والدك مشغولاً ولم يستطع ترك عمله كي يتناول طعام الغداء .

ـ جيد ، فأنا أريده في أمر ما .

ـ وما هو ؟

أجابت وهي متجهة نحو حجرتها : ستعرفين يا أمي حينما أخبر أبي ؛ فأنا أريد أن أدرك صلاة العصر الآن .

* * *

على مائدة الطعام استجمعت شجاعتها وتهربت من توترها في ملعقتها التي تعد حبات الأرز عدّاً وقالت :

ـ اليوم أخبرتني مسؤولة شؤون الطلاب عن مسابقة ستنظم بين الجامعات في الأنشطة الثقافية ، وعرضت عليّ أن أشارك فيها في مجال الشعر ، ما رأيك يا أبي ؟

أم زهرة : أين ستنظم ؟

توترت زهرة بسبب سؤال والدتها ولكنها استعادت شجاعتها وقالت متجاهلة للسؤال :

ـ إن اشتركت فيها بقصيدة مناسبة ستكون نقطة مضيئة في حياتي .

الحاج حازم : أين ستنظم ؟

ازدردت زهرة ريقها الذي جفّ تماماً وحاولت أن تستجمع شجاعتها لكنها تخلّت عنها ، فنظرت إلى الطعام وقالت :

ـ جامعة الزقازيق !

قالت أم زهرة مستنكرة :

ـ ماذا ؟! وكيف ستذهبين إلى هناك ؟!

ـ إن وافق أبي سأكون برفقة أساتذة جامعيين ومعي بعض الفتيات من الجامعة وهبة أيضاً .

قالت أمها :

ـ وترى كم يوم ستدوم تلك المسابقة ؟

ـ خمسة أيام .

انزعجت أمها فردّت :

ـ نعم ؟ خمسة أيام في محافظة بيننا وبينها سفر ، وفي مكان لا نعرفه ، وبصحبة أناس نجهلهم ! طبعاً هذا هراء .

حاولت زهرة استعطافها فقالت مترجية :

ـ يا أمي ، سنكون في أمان تام وتحت رعاية مشرفين هم في الأساس أساتذة جامعيون ، وسيكون معي فتيات أيضاً ، أنا أراها فرصة مناسبة لأختبر مهارتي في الشعر .

نظرت الأم لابنتها بحدة ومطت شفتيها اعتراضاً ، فسكتت الابنة وقد أيقنت أن عرضها مرفوض بعد ذلك الحوار ، لكن ظل نورٌ يشع في داخلها يخبرها أن الله لن يغلق باباً قد فتحه .

محطات

شعرت بضيق عندما لمحتها ، رغم مرور السنوات إلا أنها تشعر الشعور نفسه كلما رأتها ، وكثيراً ما تراها ، فهي معها في الجامعة نفسها ، وفي كل مرة تجد ذاكرتها تذهب بها إلى ذلك المشهد الذي حدث بينهما في الماضي .

« ـ معقول ، أنتِ يا زهرة تفعلين هذا ؟ أنتِ تغنين ؟ لا أصدق أنك كذلك ، ظننتك متدينة ولست من هواة الغناء !

ـ وهل رأيتني أرقص أو أغني بميوعة ؟ تلك أغنية سمعت إحدى زميلاتي تغنيها وقالت أنها لمصر .

ـ لمصر ؟ وهل تأملتِ كلماتها ؟ لقد سقطتِ من نظري » .

نظرت زهرة خلال نافذة الحافلة وتمتمت :

« سبحان الله ، أسأتِ الظن بي حينها لمجرد أنك سمعتني أغني وأسقطتني من نظرك ، وها أنت الآن تخليتِ عن ملابسك الفضفاضة وتضعين على وجهك هذه المساحيق وبالكاد حجابك يستر رقبتك ، هل هذه هي تربيتك الإسلامية ؟! » .

وسرعان ما نفضت تلك الذكريات عن رأسها كي لا تفسد عليها سرورها بموافقة والدها على السفر .

* * *

بخطى خفيفة توجهت نحو مكتب د/ أحمد مدرس مادة الأدب العربي بالكلية لتعرض عليه قصيدتها التي ستشارك بها في المسابقة ، هو رجل في بداية عقده الخامس ، يعلوه الوقار ، أطل الشيب من شعره ، وزوجته الدكتورة عزة قدوة للأجيال في أخلاقها الرفيعة وخصالها الحميدة .

د/ أحمد : مرحباً يا بنتي ، تفضلي .

د/ عزة : أهلاً بالشاعرة الرقيقة .

قالت زهرة على استحياء :

ـ هذه هي القصيدة التي سأشارك بها في المسابقة ، هلا راجعتها لي من فضلك يا د/ أحمد .

مدّ يمناه إلى زهرة ليتناول منها الورقة التي سطرت بها القصيدة وقال :

ـ هاتها يا بنتي .

وأمسك الورقة وأخذ يقرأ القصيدة ويطرق بيديه على سطح مكتبه ليضبط وزن القصيدة ، بعد أن أنتهى هز رأسه بعلامة الرضا وقال :

ـ موفقة يا بنتي ، مستواها يليق بمثل تلك المسابقة ، أتمنى لك التوفيق .

نظرت لها د/ عزة وقالت :

ـ نريد مركزاً في هذه المسابقة يا بنتي ، وفقك الله .

تركتهما وقلبها مسرور بهذا الثناء على كلماتها البسيطة ، ثم تناست أمر تلك القصيدة وانشغلت بهما ، كم يعجبها هذا الاحترام والرقي والود المتبادل بين هذين الزوجين .

« ما زالت الدنيا بخير ، هذا ما أتأكد منه في كل مرة أراكما فيها معاً يا أستاذاي الفاضلان ، حقاً أنتما ثنائي رائع وأسوة حسنة ، كم أتمنى أن يرزقني بمن تصبح علاقتنا أشبه ما تكون بعلاقتكما » .

عادت زهرة إلى منزلها لتجهز حقيبتها التي سترافقها في سفرها هذا وهي ترجو أن يوفقها الله ، فلمحت دفتر الرسم الخاص بها ، أخرجته وفتحته على صفحة بعينها ، نظرت طويلاً إلى الصورة المرسومة ، إنه رسم تخيلي للفارس صاحب الحصان الأبيض ، نظرت إلى عينيه وظلت تحدثه :

ـ هل تعلم أن فضولي يدفعني لأعرف من ستكون ؟ هل أنت قريب مني أم بعيد ؟ هل تشعر بي حين أتألم أو أفرح ؟ ألست مخلوقة من ضلعك؟! فحتماً ستشعر بي ! صحيح أنني لفترة قريبة كنت لا أتمنى وصالك ، لكن تراجعت عن موقفي لأنني ما دمت خُلقت من ضلعك فحتماً ستكون رقيق المشاعر ، حنوناً ، أسأل الله لك كل خير وأن يجنبك كل شر يا حبيباً لما أراه !

* * *

وصلت برفقة هبة إلى الكلية حيث مكان تجمع الفوج ، فالتقتا بعالية التي ستشارك هي الأخرى في المسابقة ، ثم صعد الجميع إلى

الحافلة وكان عدد الفتيات سبع وعدد الشباب مثلهن تقريباً وعدد المشرفين أربعة .

جلست بجوار هبة ، بينما جلست عالية على المقعد الأمامي ، وتحركت الحافلة متجهة نحو المدينة الجامعية الخاصة بجامعة الزقازيق ، حيث إقامة الفوج .

شعرت بسعادة غامرة ، فها هي تجلس بجوار هبة بعيداً عن مضايقات وهم ، أرخت رأسها على كتف هبة وهي تقول :

ـ أتعلمين يا هبة؟! أشعر أنني في حلم ، لا أصدق أن الله قدر لنا أن يجمعنا مجدداً في شيء كهذا .

ابتسمت هبة بهدوء وقالت :

ـ أنا أيضاً في غاية السعادة ، وأتوقع أنها ستكون رحلة موفقة .

حركت رأسها بلا مبالاة :

ـ لا يهمني إن خسرتُ في المسابقة .

نظرت إليها هبة بثقة وقالت :

ـ ستفوزين إن شاء الله ، وسيفوز باقي الفريق في باقي المسابقات .

ـ ستشاركين أنت وعالية في المعلومات العامة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، عالية مثقفة جداً ، وستساعدني في هذه المسابقة .

لا تدري كم مر من الوقت وهم في الحافلة ، لا يهم ما دام كان وقتاً ممتعاً .

* * *

مر يومان قضتهما الفتيات في التنقل بين الأنشطة المختلفة يقدمن العون لمن يحتاج إليهن ويلتقطن صوراً تذكارية في المواقف المختلفة ، كم تشعر بالمسؤولية تجاه هبة وعالية ، وتعاملهما كما لو كانت هي الأخت الكبرى لهما ، فتتكفل برعايتهما والاهتمام بشؤونهما .

في اليوم الثالث كانت مسابقة الشعر ، توجهت برفقة هبة والمشرف لحضور المسابقة التي نظمت في قاعة المناقشة ، جلست في المقعد الأمامي وبجوارها هبة ، بينما جلس المشرف في نهاية القاعة . بدأت المسابقة وكانت هي أول من ألقت قصيدتها ، وقفت أمام الميكروفون وبدأت بصوت مرتعش في البداية ، وعيناها تنظران لهبة كي تستمد منها القوة وتقرأ في وجهها تقييمها لأدائها .

أدْمـانـي الشـوقُ وأعيـانـي لحبيـبٍ يملـكُ وجْـدانـي
مَـن إنْ أغفَـلُ ضعفـاً عنـه أبـداً مـا كـان لينسـانـي

وإذا قصَّـرتُ أنـا يـومـاً ... بجميـلِ العفـو تلقَّـانـي
ولكَـم قصَّـرتُ ، أَيَـا ذُلِّـي ... وبـذاكَ ستشهَـدُ أَرْكـانـي
ولكَـم صمَّمتُ على جُرْمي ... وغـرقـتُ ببحـرِ الآثـامِ
وإذا مـا قلـتُ أَيَـا ربِّـي ... يَلْقـانـي حَبيبـي بِـإحسـانِ
فـأعـودُ كمـا كُنـت وَأَعْصي ... مـا أقبـحَ سِجـن العِصيـانِ
مـا أَسـوَأَ فِعلِـيَ يـا زَمَنـي ... فَـالـذَّنـبُ مِـراراً أَسْقـانـي
فَمَتـى سَتَكُفِّـي أَيَـا نَفسـي ... عَـن فِعـلٍ يُغضـبُ رَحْمـانـي
أَنَسيـتِ المحشَـرَ وحِسـابـاً ... وَصِـراطـاً يَعْلُـو النِّيـرانِ
وَنَعيمـاً كُتـبَ لعُبَّـادٍ ... كَـم حَـارَبـوا كَيـدَ الشَّيطـانِ
إنْ كنـتِ بِحـقٍّ تَشْتـاقـي ... يـا نَفـسُ لِنَيـلِ الغُفْـرانِ
فَعَلَيـك بِصـدِّ الشَّهَـواتِ ... إنْ كـانـتْ مثْـل الطُّـوفـانِ
وَدُعـاءِ اللهِ لِيَهـديَـك ... فَلِهَـذَا عَطـاءُ المَنَّـانِ
وَثَبـاتِـك إنْ جـاءَ الأَجَـلُ ... لتقـاومـي فِتـنَ الشَّيطـانِ
وَظِـلالاً نـرزقُ فـي الحَشْـرِ ... بِجـوارِ محمَّـدٍ أَلْقَـانـي
فَـإذا بـي أَسمـعُ فـي شَـوقٍ ... مَلَكـاً للْجَنَّـةِ نَـادَانـي
وَهنـالـكَ حقّـاً يـا نَفْسـي ... سَتَقـرِّي بِـرُؤْيـا الـرَّحْمـنِ

* * *

في اليوم الأخير كان موعد إعلان الفائزين في هذه المسابقة ،

فتوجهت الأفواج المشتركة نحو مسرح الجامعة الواسع ، وبالكادِ وجد فوج زهرة ستَّة مقاعد في آخر المسرحِ فجلسنَ عليها ، بينما وقفَ خلفهن الشباب يحملون علم الجامعة ، وبدأت حفلة التكريم . تعالت ضربات قلبها عندما بدأ المتحدِّث يعلن عن نتيجة المسابقة ، وبدا عليها التوتّر هي وزميلاتها ، كانت تثق أنها لم تفز بأية جائزة ولكنّها كان لديها أمل طفيف .

وبعد أن ملّوا من ذكر أسماء الفائزين انتبهوا جميعاً عندما قال المتحدث :

ـ وحصلت الطالبة زهرة حازم طارق على المركز الثالث في مسابقة الشِّعر .

فهلَّل الشباب قبل الفتيات وضجّ المسرح بصفيرهم وقامت هبة وعالية فاحتضنتا زهرة التي كانت في حالة اندهاش أفقدتها استيعاب الوضع الذي هي فيه .

قالت هبة وقد تهلّلت أسارير وجهها وهي تعانق زهرة :

ـ ألم أقل لك؟! مبارك حبيبتي ، مبارك عليك .

ـ فعلتِها يا زهرة ، فعلتها يا شاعرتنا الجميلة . (قالتها عالية بحالة تشبه حالة هبة) . وسمعت زهرة صوت شاب خلفها من شباب كليّتها يقول :

ـ مبارك عليكم يا بنات ، رفعتم رأسنا ورأس كليتنا .

شعرت كأنها عروس الحفل ، وزاد شعورها صوت التهليل والتصفيق وضرب الدَّف الذي جلجل في المسرح .

« نشوة الفوز تعجز عن وصفها الكلمات أحياناً ، جيد أن تبرع في شيء ما ، جيد أن تحقق ذاتك في مجال تحبه ، فقط ثق بالله ، وبقدرة نفسك ، وستصل » .

خرج الجميع من المسرح فتوجه المشرف إلى زهرة وأعطاها الكأس الخاص بالمركز الثالث في الشعر ، فالتفّ حولها الفتيات يهنّئنها مجدداً ، ووقفن بجوارها ، بينما وقف الشباب خلفهن ليلتقطوا جميعاً صورة تذكارية لهذا الفوز الذي جلبته ، فغمرتها السعادة وظلت تشكر الله على فضله وكرمه وحاولت جاهدة ألا تبكي .

« لن أبكي ، وكيف أبكي وقد منّ الله عليّ بما يزيل آلامي ؟ أجل سأبتسم ، لا دموع بعد اليوم » .

* * *

(الأحد ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٩م)

في المدرج جلست في الصف الأول عن يمينها ولاء ، وعن شمالها زميلتها حنين ، أخذت تقص على زميلتها حنين تفاصيل تلك

الرحلة التي مرت بها في الزقازيق وكيف كانت صداقتها بهبة ، وكانت حنين مستمتعة جداً بسردها ، وتقارن في قرارة نفسها بينهما وبين علاقتها بصديقتها التي بدأت تفقد ثقتها فيها تماماً .

حضر أستاذ الأدب العربي د/ أحمد فصمت الجميع استعداداً لبدء المحاضرة التي افتتحها بتهنئة زهرة أمام الجميع برجوعها بكأس المركز الثالث ، فشعرت بفرحة كبيرة شابها حرجها المعهود .

* * *

ـ حنين ، أراك حزينة ، هل حدث شيء أزعجك ؟

اغرورقت عينا حنين ، فأخفتهما ناظرة نحو الطريق قائلة :

ـ أجل ، رغم أن الأمر ليس جديداً عليّ إلا أنني لم أعد أحتمل .

التفتت إليها زهرة وأشفقت عليها :

ـ ألهذه الدرجة ؟

ـ أجل

ـ يمكنك التحدث إن شئت .

ـ هل جربت من قبل أن تفقدي ثقتك في إحداهن ؟

قالت بضيق :

ـ أجل جربت ، ويا له من شعور مزعج .

ـ هذا هو شعوري ، لقد فقدت ثقتي في أقرب شخصية لي .

ـ وماذا فعلتْ ؟!

أجابت حنين بصوت مكلوم :

ـ ذنب ، ذنب واحد فقط يكفي لأفقد ثقتي بها . . . الكذب !

اتسعت عينا زهرة وقالت مندهشة :

ـ تكذب عليكِ ؟

ـ للأسف نعم (قالتها بصوت مختنق) ، ولا أجد لها مبرراً في ذلك ، وهذا ما يؤرقني .

قالت مشفقة :

ـ وكيف اكتشفت كذبها هذا ؟

ـ لأنها ساذجة تظن أن الكذب يمكن أن يُعمر .

ـ حنين ، ربما هناك سوء فهم .

ـ لا ، فالله دائماً يسوق إليَّ الحقيقة دون عناء مني .

ـ لا تحزني يا رفيقتي ، الحياة مواقف وعبر . . .

ـ أجل ، المشكلة أنني لا أستطيع مواجهتها بحقيقتها .

ـ لماذا ؟!

ـ لا يوجد شاهد ، ويمكنها أن تنكر بكل سهولة وتدّعي أنني أنا من أسيء إليها .

ـ معك حق ، لكن يكفي أن الله مطلع عليكما ولا يخفى عليه شيء .

ـ وهذا عزائي الوحيد .

* * *

ولأن الحب الصادق يربح دائماً ، افترقت وهم عن هبة بعدما فشلت كل محاولاتها لإفساد صداقتهما بسبب سفرها المفاجئ برفقة زوجها ، بينما استكملت زهرة دراساتها العليا والتي توطدت خلالها علاقتها بهبة أكثر فأكثر .

والتحقت بالدراسات العليا هي وسارة في القسم نفسه ، بعد افتراقهن طوال الأربع سنوات الجامعية ، وبعدما تأثرت صداقتهما بهذا الافتراق ، إلا أن القدر جمعهما مرة أخرى فعادتا كما كانا من قبل ، وعادت روابط الصداقة بينهما قوية .

حدث لها اتزان داخلي ، لقد اكتمل شقّا فؤادها فعاد لها النبض من جديد ، توءم روحها سارة وتوءم هناها هبة ، لكن ما زال يؤثر غياب نهلة عليها ، هي مدينة لها بالكثير ، ليتها تعود ، ولكن

كيف ؟ ورغم ذلك إلا أنها اكتشفت مكاناً شاغراً في قلبها ، يشعرها دائماً باحتياج لشيء ما تجهل كنهه !

* * *

في يوم الجمعة ٢٥ يناير عام ٢٠١١م ، حدث ما قلب الجمهورية رأساً على عقب ، وقامت ثورة ٢٥ يناير والتي كانت بدايتها موقع التواصل الاجتماعي « الفيس بوك » ، وكثر ذكر ذلك الموقع ، فقررت أن تفتح لها حساباً عليه فور انتهائها من الامتحانات كي تتابع أحداث هذه الثورة التي صارت حديث العالم كله ، لتبدأ ثورتها هي .

* * *

مرت أربعة أشهر على تواجدها على هذا الموقع ، وأصبح لديها صداقات لا بأس بها ، وكان مبدؤها ألا تضيف رجالاً لأنها من خلال خبرتها السابقة في هذا العالم الافتراضي اكتشفت أنه لا أمان لأحدهم مهما تظاهر بالالتزام والتدين ، وأنهم بارعون في خداع الفتيات ، لا تنسى حينما كانت في الصف الثالث الثانوي انجذاب الشباب لها عندما كانت تدخل حجرات الدردشة لتذكر الموجودين بالله ، ولا تنسى من تجرؤوا في الحديث معها ففهمت نواياهم الخبيثة ، كلهم سواء ، لذلك تكرههم ، إلا واحداً تتمناه بشدة

وليس له وجود سوى في خيالها ، تراسله في دفترها الخاص ، تتحدث إليه وتخبره عن احتياجها له ، تدعو له دائماً مرة بالسعادة والرزق أو بالشفاء ، وأحياناً باقتراب مجيئه إليها لتطلعه على دفترها الخاص !

* * *

يتكرر ذلك الكابوس نفسه (خاطب جديد) ترفض وبشدة ، فيثور غضبهم ، كيف ستضع نفسها في ذلك الموقف السخيف ؟ كيف يستهان بمشاعرها هكذا ؟ رفضت ، فلم يصغِ إليها أحد ، رتبوا كل شيء ولم يكن في استطاعتها سوى الرضوخ ، وفي جنح الليل قامت ونصبت قدميها إلى الله تناجيه ، وتبكي ، تبكي كثيراً :

أبعده عني يا إلهي ، لا أريده ، لا أريده ، لا أريد أن أعرض كسلعة وهو يقرر هل مواصفاتي تناسبه أم لا ، ثم إنه يفقد شرطاً أساسياً لا يمكنني أن أتنازل عنه ، يا رب خلصني من ذلك اللقاء .

* * *

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله .

قالت بلهفة :

ـ كيف حالك يا غاليتي ؟

ـ الحمد لله ، تحسنتْ حالتي كثيراً ، سامحيني على انقطاع اتصالي بك هذا الأسبوع بسبب تعبي .

قالت بتودد :

ـ لا تقولي ذلك ، المهم أنك صرت بخير الآن ، كنت قلقة جداً عليك .

ـ شكراً لك على اهتمامك المعهود يا زهرة ، ما جديدك يا عزيزتي ؟

ـ تعرفت على فتاة من جامعتنا على الفيس بوك تدعى مؤمنة ، ونشأت بيننا صداقة طيبة ، هي في الفرقة الثانية .

ـ جيد .

ـ وهناك أمر يحزنني قليلاً .

ـ وما هو ؟!

قالت بصوت متوجع :

ـ منذ أكثر من شهرين عثرت على صفحة نهلة على الفيس بوك ، فأرسلت لها طلب صداقة وإلى الآن لم تقبله .

ـ ربما هي لم تره يا زهرة ، أو ربما لم تعرف أنه يخصك .

ـ معك حق ، كل شيء جائز . . .

ثم تذكرتِ الهدفَ الرئيس من المكالمة فعقبت :

ـ هبة ، هناك أمر أريد أن أقصّه عليكِ .

ـ خيراً ؟

ـ في بداية مرضك تقدَّم لخطبتي شاب تتمناه أية فتاة .

ردت هبة بانتشاء :

ـ جيد .

ـ لكنني رفضته .

ـ لماذا ؟!

ـ من أجلك أنتِ .

ـ من أجلي أنا ؟! (قالتها بدهشة) .

ـ أجل ؛ لأنه يعمل في الخليج ، وكان من المفترض أن أسافر معه لأعيش هناك ، كان الكل مرحباً به إلا أنا ، رفضته لأنه كان سيبعدني عنك ، وقبل يوم التقائي به دعوت الله في قيامي أن يصرفه عني ، وبالفعل رغم أنه وجد بي الصفات التي يبحث عنها إلا أن الله صرفه عني .

ـ معقول يا زهرة !

ـ أجل ، لقد عاهدتك أن أظل بجانبك ، وعندي يقين في الله أنه سيرزقني بمن تتوافر فيه جميع شروطي وشروط أبي .

ـ وما هي شروطك إذاً ؟

ـ شروطي . . .

ذهبت بخيالها إلى عالم الأحلام واستدعت منه ذلك الفارس ذا الحصان الأبيض ، بوجهه الذي رسمته له ، وصارت تصفه لهبة كأنها تراه رأي العين قائلة :

ـ أريده على خلق ودين ليأخذ بيدي إلى الجنة ، ويا حبذا إن كان مجوداً للقرآن الكريم مثلي ، أريده يخاف الله فيّ فلا يهينني أو يضربني كما يفعل من حولي مع زوجاتهم ، أريده حنون القلب رقراق المشاعر ، أحتمي فيه من قسوة الدنيا ، يكون رجلاً لي لا علي ، ويقدر أنني إنسانة حساسة جداً أتعامل مع الحياة بقلبي وأحتاج معاملة خاصة ، يقدر معنى الصداقة فلا يحول بيني وبينك يوماً ، وأن يكون سكني بجوارك يا صديقتي ليسهل تواصلي معك .

ـ هل إذا توافر من به كل الصفات تلك إلا الشرط الأخير سترفضينه ؟!

ـ أليس هذا ما حدث بالفعل ؟!

ـ لكن هذا جنون يا صديقتي !

ـ ربما يبدو كذلك ، لكن بالنسبة لي ، ما دام الله قد علق قلبي بتلك الأمنية فسيحققها لي ، هذا ظني فيه .

ترفض فكرة الخطبة لأنها تخشاها ، تخشى أن ترتبط بمثل هؤلاء الرجال الذين تراقبهم حولها ، يسعون لهدف واحد ، وعندما يحققونه ، يتحولون . . هي ليست دمية يلهو بها أحدهم كما يشاء ثم يلقي بها بعيداً إذا زهد فيها ، لا تريد من يفرض سطوته عليها كرجل يأمر وينهي وما عليها سوى الطاعة ، تتمنى ككل فتاة أن تجد ذلك الذي يحتويها ، إنه فرصتها الوحيدة لتحصل على كل الاهتمام ، تريد واحداً يختلف عن الجميع ، تريده كالملاك ، لا تبحث عن عينين ملونتين وشعر بني ليشبهها ، تبحث عن رجل تعشق طباعه ، تحتمي به وفيه ، يقدر حبها لهبة وسارة ، ولكن أين هو ؟ ليته يأتي كي ينتشلها من ويلاتها تلك .

لا ، ليس ذلك الشاب الذي رآه الجميع مناسباً إلا هي ، لم ترتح له فور إخبارها به ، سئمت تكرار ذلك الموقف وتمنّت لو تم الأمر بطريقة أخرى تجهل كيفيتها . لقد افتقر ذلك الخاطب شرطاً أساسياً عندها ، لا تريد فراق حبيبتها ، ولن تفعل ، رفضته وكأنها تنتقم فيه من كل من رفضوها من قبل ، ولأنها لم تستطع مصارحة أهلها بالرفض لجأت إلى مخلِّصها فاستجاب لها ، ورغم أنها نفسها فتاة

أحلام ذلك الشاب إلا أنه وجد كأن حاجزاً يمنعه عنها ، حاول أن يقول إنها هي ، لكن لم يستطع ، وتمّ ما تمنّت .

* * *

أتى شهر رمضان ، قررت أن تنشئ مجموعة دينية على صفحة الفيس بوك تكون هي وصديقة لها مسؤولتين عنها ، وطلبت منها إضافة من عندها من الأصدقاء بشرط عدم إضافة الرجال .

وبالفعل حدث ما طلبته ، وتكونت المجموعة ، وكان التفاعل فيها جيداً . وبعد أسبوع جاءها طلب صداقة من إحدى عضوات المجموعة فقبلته لأنها كانت تتفاعل بصورة طيبة فيها ، ولم تدرِ أن تلك العضوة كانت تنوي على أمر ما سيغير مجرى حياة زهرة !

حدث غريب

رن الهاتف الأرضي ، فأغلقت مصحفها وقامت لتجيب ، وكانت المفاجأة !

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، كيف حالك يا زهرة ؟

لم تصدق أذنها ، واندهشت ، « أهذه أنتِ ؟! معقول بعد كل هذا ؟ » أجابت متعجبة :

ـ أنا بخير !

ثم صمتت مجدداً لتستمع إلى صوت محدثتها التي تتحدث بحرج :

ـ طبعاً أنت تتعجبين من اتصالي ، أعذرك ، لقد رأيتك في منامي الليلة الماضية تحملين باقة ورد وتعطينني إياها ، بالضبط كما فعلت في آخر زيارة لك عندي ، وحينما استيقظت شعرت بأنني أشتاق إليك ، وبأنني كنت مخطئة عندما ابتعدت عنك ، سامحيني يا زهرة .

سلكت العبرات سبيلها إلى عينيها ، لم تستوعب بَعد هذه المكالمة ، ثم بَعد صمت قالت :

ـ لقد عانيتُ كثيراً منذ أن ابتعدت عني ، وليتني أعلم السبب ، أنا ما زلت أصون مكانتك في قلبي ، وتمنيت مراراً لو عادت صداقتنا .

ـ وها أنا ذا أطلب منك أن تعود صداقتنا من جديد ، نادمة أنني ابتعدت عنك .

تبلورت عيناها بالدموع لكنها تمالكت :

ـ أنا لا أصدق ، أخيراً استجاب الله دعائي . . . لقد تغيرت

شخصيتي يا نهلة ، ومرّ قلبي بمراحل كثيرة إلا أنني مازلت أحمل لك الجميل في قلبي .

ـ وأنا أيضاً مررت بالكثير ووجدت أن صداقتنا يجب أن ترجع كما الماضي .

شعرت بصدقها فتذكرت طلب الصداقة المعلق فقالت :

ـ ولماذا لم تستجيبي لطلب صداقتي الذي أرسلته ، لقد أرسلته منذ فترة .

ـ حقاً ! أنا لا أهتم بطلبات الصداقة لذلك لم ألاحظه ، سأقبله بمجرد أن أفتح صفحتي ، ولنبدأ صفحة جديدة في صداقتنا .

* * *

بعد أيام قليلة ظهرت نتيجة نهاية العام وحصلت على تقدير عام جيد جداً ، وبدأت تتواتر التهاني على صفحتها الشخصية ، وإذ بالعضوة نفسها قد أرسلت لها رسالة نصها :

« مرحباً يا بنتي ، أرجو أن تحدثيني فور رؤيتك لرسالتي » .

تعجبت زهرة جداً من محتوى تلك الرسالة ، وترددت في الإجابة ، ولكنها حسمت أمرها وأرسلت الرد :

ـ أهلاً ، أنا متواجدة الآن .

بعد لحظات أجابتها (ماجدة) ، ودارت بينهما تلك المحادثة :

ـ أولاً ، مبارك عليك النجاح .

ـ أشكرك .

ـ في أي كلية أنت ؟

ـ كلية التربية .

ـ إذاً هذا نجاح التخرج ؟

ـ لا ، لقد أنهيت أول سنة في دراساتي العليا .

ـ ما شاء الله ، جيد .

ـ خيراً يا أستاذة ماجدة هل هناك أمر هام ؟

ـ في الحقيقة ، أجل ولكن دعيني أعرفك بنفسي أولاً .

بدأت تتوتر من ذلك الحوار وبدأ الشك يتسرب إلى قلبها .

« يبدو أنني تسرعت بقبولي طلب الصداقة ، ويبدو أيضاً أنني تسرعت في ردي عليها ، ترى ماذا تريد مني هذه السيدة ؟ » .

ـ أنا ماجدة ، عمري ٤٥ عاماً ، أعيش في محافظة القاهرة ، وأعمل وكيلة في أحد المعاهد الأزهرية الثانوية .

قالت في سرها : « وما شأني أنا بهذا كله » حتى فاجأتها بتلك الرسالة :

ـ أريد خطبتك لأحد أبنائي .

توتر ، غضب ، ندم ، لا تدري أيهم يسيطر عليها أكثر ، والنتيجة واحدة ، لا تصدق ما يحدث !

ـ ماذا ؟! ما هذا الهراء ؟!

ضربت كفاً بأخرى وهي تردد :

« هذا الكلام لا يمكنني تقبله حتى ولو مزاحاً ، من هذه ؟ وكيف تتجرأ على قول هذا ؟ يا إلهي هل هذا كابوس ، الخطأ خطئي ، كيف أتحدث مع امرأة لا أعرفها ؟ » .

ثم ردّت على رسالة ماجدة بيد مرتعشة وقد عقدت العزم على حذفها فور انتهاء تلك المحادثة التي يجب أن تنهيها بأدب :

ـ شكراً ، أنا لا أريد الارتباط حالياً .

منفعلة ، رغم ذلك تبدو كلماتها هادئة ، تشتاط غيظاً إلا أن ملامحها ساكنة .

ـ ولكنه مناسب جداً يا بنتي ، إنه طبيب في الخامسة والعشرين من عمره ، وهذا هو رابط حسابه على الفيس ، يمكنك الاطلاع على صفحته الشخصية لتحصلي على المعلومات التي تريدينها .

نظرت زهرة إلى الرسالة ولم تحاول حتى فتح الرابط المرسل

إليها ، تزداد حالتها سوءاً ، ويزداد اضطرابها أكثر فأكثر ، لا تدري لماذا دفعها فضولها في هذا الاتجاه لتسألها :

ـ ولماذا وقع اختيارك عليّ أنا بالذات ؟!

ـ أنا أراقبك منذ فترة ، وتأكدت أنك ذات خلق ودين ، لذلك اخترتك أنت بالذات .

ـ وما يدريك ؟ فلربما أنا أتصنع ذلك على الفيس بوك .

ـ لا ، أنا لي نظرة صائبة في الناس .

ضحكت بسخرية ، وقفت وأمسكت رأسها بيديها وشعرت بأن الدم كله قد ارتكز فيه وظلت تتحرك في حجرتها ذهاباً وإياباً ، كمن به مسّ من الجن :

« يا إلهي ! ما هذا المأزق ؟ كيف أتصرف ؟ ألهمني حسن التصرف يا ربي » .

وظلت هكذا تجوب حجرتها مرات ومرات ، مزاح سخيف وموقف أسخف ، إلى أن ألهمها الله الحل ، فجلست وقد فقدت أعصابها تماماً وقررت أن تنهي هذه المسرحية السخيفة .

ـ أمهليني بضعة أيام أفكر في هذا العرض .

ـ حسناً ، خذي وقتك .

لا بدّ وأنها ساحرة ، نجحت في إثارة فضول زهرة التي ما أن أنهت الحوار معها حتى فتحت حسابها لتتأكد من تلك البيانات التي أعطتها إياها ، فتأكدت مبدئياً من صحة كلامها ، وما الفائدة من ذلك ما دامت قد عقدت العزم على رفض الموضوع وحذفها من قائمة الأصدقاء في أقرب فرصة ؟ فتحت مصحفها وبدأت في قراءة القرآن كي تنسى ذلك الموقف السخيف ، ولكن هيهات أن يحدث ذلك !

مر يومآن واقترب الشهر المبارك على الانتهاء وما زالت تذكر ذلك الحوار ، ولا تعرف كيف ستردها بأدب كي لا تزعجها فيما بعد .

كانت تدعو الله في صلاتها وفي قيامها وتكثف الدعاء في هذه الليالي المباركة أن يرزقها الله بالزوج الصالح ، أريده حنون القلب ، حسن الخلق ، باراً بأبويه إن كانا على قيد الحياة ، يغار علي بشدة إلا من صديقاتي ، أريده يملك صوتاً رائعاً في قراءة القرآن مثل سارة ، وأخيراً يسعى إلي سعياً لتديّني دون أن يراني ! ، كيف ، لا أدري ، دبّر لي كل ما طلبتُه يا إلهي ، فإن كنت أنا لا أعلم كيف ومتى ، فأنت تملك مفاتح كل شيء ولا يعجزك شيء .

* * *

« نهلة ، أجل هي من ستساعدني في هذه المشكلة ، فهي أكثر خبرة مني في الإنترنت ، ويمكنها تقديم النصيحة المناسبة لي » هكذا قررت فقامت وطلبت نهلة وسألتها :

ـ نهلة ، بما أنك متواجدة على الفيس قبلي بزمن ، أريد أن أسألك سؤالاً .

ـ تفضلي .

قالت بتوجس :

ـ هل سبق وتقدم لك أحدهم عن طريق الفيس ؟

ضحكت نهلة وقالت :

ـ حدث ذلك أكثر من مرة .

سألت بدهشة :

ـ وكيف تصرفتِ ؟

ـ كنت أعتذر طبعاً ، وخاصة أن من تقدموا لخطبتي لم يكونوا مناسبين لي أصلاً .

ـ لقد حدث معي الشيء نفسه ولا أدري كيف أتصرف !

وقصّت تلك المحادثة لنهلة فقالت :

ـ انتظري لعله شخص مناسب .

ردت مستنكرة :

ـ كيف يا نهلة ؟! أنا لا أتصور أن يكون زواجي بهذه الطريقة ، ثم ما يدريني أنها صادقة .

ـ كوني حريصة ولا تعطيها أي بيانات خاصة بك ، وافتحي صفحة هذا الشاب ربما تجدين فيها ما يلهمك سبب الرفض .

ـ حسناً .

أنهت المكالمة وتوجهت نحو حاسوبها ، فتحت الرابط الذي أرسلته ماجدة ، وما أن وقعت عينها على صورة ذلك الشاب حتى شعرت بانقباض قلبها ، فخرجت من الصفحة في لمح البصر ، وعقدت العزم على الرفض ، فهو لا يشبه تلك الصورة التي في مخيلتها أبداً !!

* * *

« السلام عليكم ورحمة الله ، أعتذر عن تأخر الرد ، لقد فكرت كثيراً وتوصلت للقرار الذي يناسبني ، أنا لا أفكر في الارتباط الآن ، فأنا ما زلت أدرس ولا أريد شيئاً يشغلني ، شكراً لك على حسن ظنك بي » .

كانت هذه رسالة زهرة إلى ماجدة ، أرسلتها ثم أغلقت الحاسوب وعقدت العزم ألا تفتح الفيس بوك هذا اليوم كي لا تناقشها ماجدة في شيء .

* * *

في مساء اليوم التالي فتحت حاسوبها كعادتها على صفحتها الشخصية ، فوجدت رسالة جديدة فتحتها وقرأتها ثم تمتمت :

« هكذا إذاً ، لن أفقد الأمل » .

وبدأت بالاطلاع على آخر الأخبار في انتظار ظهور زهرة ، وما أن رأت حسابها نشطاً حتى راسلتها :

ـ السلام عليكم .

تفاجأت زهرة بظهور المحادثة أمامها وارتبكت ، فكرت أن تخفي تواجدها لكنها لم تفعل ، قادها فضولها لتعرف ما ستقوله ماجدة بعد رسالتها الأخيرة لها .

« يا ربي ! ليس مجدداً ، ماذا في جعبتك اليوم يا أستاذة ماجدة ؟! » .

وبعد تردد أجابتها :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ـ لقد رأيتُ رسالتك لي ، في الحقيقة أنا أراها فرصة مناسبة يا بنتي ، ثم ما المانع أن تتم خطبتك بجانب دراستك ؟

اتسعت عيناها في دهشة ، ما زالت في حالة عدم استيعاب لما يحدث ، لا تصدق أن ماجدة تلك جادة في كلامها ، ولكن لعدم خبرتها الكافية في عالم الفيس بوك هذا لم تعرف ما هو التصرف الصواب في مثل ذلك الموقف ، وكانت المواجهة هي السبيل الوحيد الذي توصلت إليه ، فقررت مجاراتها في الحديث حتى النهاية .

ـ أنا يا أستاذتي لا يمكنني أن أجمع بين الخطبة والدراسة ، لن أستطيع التركيز فيهما معاً .

ـ وما يدريك ؟ بل ربما تكون خطبتك دافعاً لك في الدراسة ومشجعاً لك أيضاً .

ـ لا أعتقد ، أنا أعرف نفسي جيداً .

ـ أنا أراه مناسباً جداً لك يا بنتي وخاصة أنه يعمل في الخليج ويمكنك الذهاب إلى بيت الله بسهولة من هناك .

كانت تظن أنها بذلك ربما تجلب موافقة زهرة ولا تعلم أنها قد أعطتها مفتاح الرفض ، فهو رغم أنه من وصفها على خلق وشهادته

جامعية إلا أنه لم يتوفر فيه شرط أساسي بالنسبة لها ، فهو أشبه ما يكون بصاحبه الذي رفضته من قريب .

شعرت بسرور لأنها قد نالت الفرصة المناسبة للتخلص من ذلك الكابوس وردت بكل ثقة على ماجدة :

ـ للأسف! بتلك المعلومة التي ذكرتِها قد حسم الأمر ، فأنا وحيدة أمي ولا يمكنني السفر خارج مصر ، فليس لديها من يهتم بها غيري ، هذا أولاً ، أما ثانياً فأنا لي صديقة أرتبط بها بشدة ولا يمكنني أن أتزوج خارج المحافظة فضلاً عن أن أسافر بعيداً وأتركها ، فلقد عاهدتها أن أظل بجانبها دائماً .

ـ أما عن والدتك فيمكنك السفر إليها إذا احتاجتك بجانبها وهو لن يمانع ، أما بخصوص صديقتك فمعذرة ، هذا ليس عذراً منطقياً .

ـ ربما هذا من وجهة نظرك لأنك لا تعلمين من هي بالنسبة لي .

ـ حتى وإن كانت كما تقولين ، لا يمكن أن تضحي بمستقبلك من أجل صديقتك تلك .

ردت بعناد توارى خلف شاشة الحاسوب :

ـ بل أفعل ، وسأضحي بأي شيء يمكن أن يحيل بيني وبينها هي وباقي صويحباتي .

ـ أنا لا أؤيدك .

ـ وأنا أعذرك ، وأعذر كل من لا يتفهم موقفي هذا ، ولكن هذه أنا ، وهذه طريقتي في التعبير عن وفائي لها .

ـ وهل إذا تقدم لها شخص مناسب واشترط السفر سترفضه من أجلك ؟! !

ـ أعتقد أنها ستفعل .

ـ لا ، لن تفعل ، لأن هذا خلاف المنطق .

ـ أنا لا أؤمن بالمنطق هذا ، وأؤمن فقط أن الله قادر على أن يسوق لي ما أتمناه لأنني أدعوه بذلك دائماً .

ـ ونعم بالله ، لكن عليك الأخذ بالأسباب « اعقلها وتوكل » .

ـ وهذا ما أفعله بالضبط ، عقلتها هكذا ، وأنتظر من الله النتيجة .

وبدأت تشعر بالضيق من ذلك الحوار ، هي تعلم أنها تضع شرطاً قاسياً ولكن لا يمكنها التنازل عنه ، وتثق تمام الثقة أن الله الذي غير لها أموراً كثيرة كي تظل برفقة هبة قادر على أن يرسل إليها من تتمناه ولو بعد حين ، ولكن كيف يمكنها أن تقنع أحداً بذلك ؟

ـ فكري جيداً يا بنتي في عرضي هذا .

ـ عفواً ، هذا ما عندي ، لن أقبل بأحد خارج محافظتي ، وأن يكون مسكني في مدينة هبة نفسها .

ـ وأين تسكن هبة هذه ؟

ـ في المدينة الجديدة .

أخبرتها زهرة من باب التعجيز كي تنهي هذا الحوار ، ولكنها تفاجأت أنها قد فتحت على نفسها صراعاً جديداً حينما قالت لها ماجدة :

ـ إذاً ، إن كان الأول لا يناسبك فالثاني سيناسبك تماماً ، هو يعمل في هذه المدينة نفسها وسيسكن فيها أيضاً .

صدمت من كلام ماجدة ومن إصرارها وإلحاحها هذا ، أيعقل أن تعجب بها في هذه الفترة الوجيزة ؟ وكيف تصر هكذا وهي لا تعرفها على أرض الواقع ؟ هذا غير معقول ، كيف لعقل أن يقتنع بهذا ؟ ثم كيف ستتأكد أصلاً من صدق هذه السيدة ؟ وحتى إن تأكدت كيف ستكون النهاية ؟! !

تساؤلات كثيرة فصلتها عن عالمها المحيط ، وكان أبسط ما تتمناه أن تستوعب على الأقل أن ما يحدث هذا ليس مزاحاً !

ـ لماذا تصمتين يا بنتي ، أين ذهبتِ ؟

ـ أنا معك ، لم أذهب إلى أي مكان .

ـ حسناً ، هذه صفحته ، هو في الحقيقة ليس ابني ولكنه في مقام ابني ، أعرفه منذ فترة وأخلاقه لا غبار عليها ، بالإضافة إلى أنه يعمل في مدينة صديقتك نفسها .

وأرسلت رابط صفحته الشخصية لها ثم استأنفت وقالت :

ـ ليس لديك حجة هذه المرة .

نظرت زهرة إلى الرابط وقد شل عقلها تماماً عن التفكير ، وتتمنى لو تكتشف في النهاية أن كل هذا مجرد كابوس وتستيقظ منه في أقرب وقت .

ـ حسناً ، سأفكر في الأمر .

أنهت المحادثة وأغلقت حاسوبها تائهة تعصف بها الفكر عصفاً بلا هوادة ، فرت إلى الله تناجيه ، ظلت تدعوه أن يكون بجانبها في هذه المحنة وأن تمر منها بسلام ، فهي لا يمكنها تقبل هذا الوضع ، ولا يمكنها أن تستشير والدتها فيه ، فهي تخشى عواقب هذه الاستشارة .

ظلت تصلي وتبكي وتدعو الله أن يصرف عنها كل من يريد بها شراً ، وبعد أن انتهت من صلاتها جلست مجدداً أمام الحاسوب فساقتها يداها إلى رابط الصفحة الشخصية لذلك الشاب وقررت

فتحها علّها تجد أيضاً هذه المرة سبباً للرفض ، تتصرف كمن وقع تحت تأثير تنويم مغناطيسي ، وبعد نقرة واحدة فتحت لها الصفحة ، ووقعت عينها على صورته فتوقف بها الزمن ، وذهب بها إلى مكان وزمان تجهلهما ، تصارعت ضربات قلبها فوضعت يديها على صدرها لتهدئه وأغمضت عينيها بعدما أصابها دوار خفيف ، ليس من عادتها فعل ذلك ، لم تشعر حتى بتأنيب ضمير ، غريبة !

« أجل ، لقد رأيته من قبل ، أثق في ذلك ، لكن أين ومتى ؟ لست أدري » .

وشعرت برغبة ملحة لتعيد النظر إليه فتكررت حالتها الأولى ، ثم جاءت الصدمة الثانية عندما قرأت اسمه ، ولم تشعر سوى بعينها التي توقفت عند الاسم تقرؤه مرات ومرات ، لا شك ، لقد أصابتها ماجدة بسحرها !

قامت بعدما أغلقت حاسوبها وجلست على فراشها في محاولة منها للتخلص من هذا الشعور الذي وقعت فيه سهواً ، ولتستعيد هدوء نفسها ، حتى راحت في النوم .

* * *

وكما تفعل كل صباح بعدما تنتهي من قراءتها للورد اليومي ، جلست أمام حاسوبها وأول ما بحثت بعينها توجهت نحو صندوق

الرسائل فلم تجد رسائل جديدة ، ألم تنوِ حذف ماجدة ؟ فما الذي منعها ؟ ولماذا تنتظر منها رسالة ؟ هل هذا مفعول السحر ؟ ظلت تتصفح وذهنها شارد يفكر في ماجدة وكأنه يستدعيها ، وبالفعل ظهر أمامها المربع الحواري الخاص بماجدة وبدأت تحدثها :

ـ ها ! كيف حالك اليوم يا زهرة ؟

ـ بخير الحمد لله .

ـ هل فكرتِ في الموضوع ؟

ـ أجل .

ـ وما النتيجة ؟

ـ سأعطي نفسي فرصة أراقبه فيها أولاً .

« ماذا دهاك يا زهرة ؟ هل أصبت بالجنون ؟ »

ـ ممتاز ، إذاً سأضيفك إلى المجموعة الخاصة بي ، والذي هو عضو فيها كي تتمكني من مراقبته جيداً .

ـ لا بأس ! ولكن لدي سؤال .

ـ تفضلي .

ـ لماذا أنا بالذات من وقع عليها اختيارك ؟ السبب الذي ذكرتيه ليس كافياً ، فأمثالي كثر على الإنترنت ، ثم إن المجموعة التي

تعرفتِ علي من خلالها كنت أنا وصديقتي من يديرها وهي تشبهني جداً في السبب الذي قلتيه ، فلماذا اخترتيني أنا دونها ؟

ـ كما أخبرتك من قبل ، أنا لي نظرة في الناس وأنت فيك شيء مختلف عن باقي الفتيات جذبني إليك ، ما هو ؟ لست أدري ، وأشعر أنك إحدى بناتي وأتمنى لك السعادة .

ردّت بتعجب : هذا كل شيء ؟!

ـ أجل ، صدقيني .

ـ أنا أتعجب لماذا أصدقك رغم أنني لا أعرفك شخصياً ؟ لماذا أثق في حديثك وأنا أعلم جيداً أن هذا الفيس بوك ليس أهلاً للثقة ؟

ـ لأنني فعلاً صادقة في حديثي معك ، وستؤكد لك الأيام هذا .

ـ أتمنى .

وبالفعل قامت بإضافة زهرة إلى مجموعتها الخاصة ، والتي كان ريان مسؤولاً فيها ، فظلت تتصفح المنشورات وتتوقف كلما وقع المؤشر على منشور له فيضطرب نبضها وتتسارع دقات قلبها .

« أفقدت صوابها ؟ ربما ، أم تنساق لقدرها ؟ ربما أيضاً ، هل صدقاً ما يقال : الأرواح تألف لأنصافها ؟ يجب أن يكون الأمر كذلك ، وإلا فكيف تتصرف هكذا ؟ »

ومرت الأيام وفي كل يوم تدخل مجموعة ماجدة وتتصفحها ثم تعلق على المنشورات التي تنال إعجابها والتي كان من ضمنها بالطبع منشورات ريان الذي كان أحياناً يرد على تعليقاتها ، وليته لم يفعل !

كانت تتعمد ماجدة أن تجمع بينهما في حوارها داخل المجموعة لتتيح لزهرة فرصة أكبر لاكتشاف شخصيته ، وكانت أول فرصة انتهزتها لفعل ذلك هو يوم ميلاد زهرة الذي وافق ثالث أيام عيد الفطر ، فنظمت لها حفلة في المجموعة وطلبت مساعدة ريان فيها ، فشعرت زهرة أنها أميرة تتهافت عليها التهاني ، تعلم أن الاحتفال بأعياد الميلاد لا يجوز لكن تلك حفلة صورية في عالم افتراضي ، لفت انتباهها كلام ريان ، أدهشها كيف يمزح . استطاع أن يضحكها مرات ومرات ، يشبهها في أمور كثيرة ، لكن هل لاحظ هو أيضاً ذلك ؟!

* * *

ـ لحظة ، هل أنت جادة فيما قلتِ ؟! !

أومأت أن نعم .

رجعت هبة بظهرها قليلاً وقالت :

ـ كأنك تقصّين عليّ فيلماً سينمائياً يا زهرة .

ـ لكنه حقيقة يا هبة . .

ـ زهرة ، انتبهي جيداً كي لا تكون لعبة تُحاك عليكِ .

ـ أنا فعلاً حريصة جداً ، بل أنا أتوقع أن تنتهي تلك القصة في أقرب وقت ، وأكتشف أنه لا ماجدة ولا ريان .

قالت هبة بابتسامة طفولية :

ـ أتعلمين ؟ رغم كل هذا إلا أنها قصة شيقة ، ومهما كانت النتيجة يكفي أنها مغامرة غير معتادة .

ضحكت زهرة فوضعت كفها على فمها تكتم صوت ضحكتها ، فهما يجلسان في مكان عام ، ثم اقتربت من هبة وقالت بصوت منخفض :

ـ وهذا المنطق نفسه الذي أسير خلفه ، قصة غير معتادة تضفي نوعاً من الإثارة في حياتي !

ـ لكن ماذا إن حدث وتحولت القصة إلى حقيقة ؟

رجعت بظهرها وقد ابتسمت وهي تزفر ساخرة :

ـ هذا فرض مستبعد يا رفيقتي ، لا يوجد مثل هذا على أرض الواقع ، إنه يحدث فقط في السنيما .

ـ أتمنى لو تحوّل إلى حقيقة ، فقط لتكوني بجواري هنا .

حركت رأسها يمنة ويسرة بالرفض :

ـ لا تذهبي بخيالك بعيداً ، أنا أثق في أن الله سيقدّر هذا ، ولكن أشك في أن تكون هذه الطريقة .

قالت وقد كست ملامحها البسمة :

ـ هلا ضممتني إلى تلك المجموعة ، لدي فضول أن أطلع على تلك القصة بنفسي .

ـ طبعاً لا مانع عندي ، فلربما تفعل معك الشيء نفسه (وتضحك) .

وبالفعل رجعت زهرة إلى البيت وهي سعيدة جداً لرؤيتها صديقتها وبأنها قد شاركتها ما يحدث معها ، ثم فتحت حاسوبها على مجموعة ماجدة لتضيف هبة إلى أعضائها ، فلاحظت ذلك المشهد المتكرر ، على شمال المجموعة حيث يتم عرض صور بعض الأعضاء متجاورين في صف واحد ، ومنذ أن دخلت تلك المجموعة ترى في كل مرة صورتها بجوار صورة ريان وبجوارهما صورة ماجدة ، فتتعجب من ذلك ، هل هذه إشارة لشيء ما ؟!

وتمر الأيام وتتوطد علاقة زهرة بماجدة ، ويتبادلان الاتصالات الهاتفية ، وبدأت تشعر بارتياح إلى ريان من خلال منشوراته وتعليقاته ، والتي اكتشفت من خلالها أنه يحفظ كثيراً من كتاب الله ويجوّده أيضاً بصوت الشيخ نفسه الذي تقلده سارة ! لا ينقصه إلا

شيء واحد تتمناه زهرة بشدة ؛ أن يربي لحيته ليشبه الصورة التي رسمتها لفارس أحلامها .

ريان

جلست على إحدى الطاولات المتراصة المغطاة بقماش حريري في تلك القاعة المزينة بالورود ، وحولها يتوافد الناس تباعاً والجميع في انتظار عروس الحفل ، جلست وظلت تنظر إلى مقعد العروسين وقلبها يخفق فرحاً لحبيبتها التي ستتزوج اليوم ، وتسأل نفسها :

« ترى هل سأكون مكانك يا صديقتي قريباً أم لم يأذن الله لي بعد ؟ هل ستتحول قصتي إلى حقيقة أم ستطويها الأيام وتنتهي ؟ »

بعد قليل حضرت العروس بثوبها الأبيض المرصع بالكريستال الفضي وبجانبها زوجها في بذلته السوداء ، حتى وصلا عند المنصة ، فتواتر عليهما الأهل يهنئونهما ويباركون زواجهما ، ثم بدأ الحفل بعدما خرج العريس من القاعة . أغلق الباب على النساء وبدأت الفرقة الإنشادية فقرات الحفل ، فتوجهت نحو العروس عانقتها وهتفت في إذنها قائلة :

ـ تبدين رائعة جداً يا سارة ، مبارك عليك يا حبيبتي .

وظلت وقتاً مع صديقتها تتراقص معها هي وباقي الأهل

والصديقات ، ثم استأذنتها وهي في غاية السعادة بزواج توءم روحها ، غادرت العرس بفكر مشغول وأمانٍ طيبة !

* * *

عادت إلى البيت برفقة أمها التي رافقتها في العرس ثم توجهت نحو حجرتها وأغلقت الباب خلفها ، فتحت حاسوبها لتقصّ على ماجدة أحداث هذا العرس والسعادة تكحل عينيها ، وتعطر أنفاسها . وجدتها فراسلتها :

ـ مرحباً أمي .

ـ مرحباً ابنتي الحبيبة ، ها ؟! كيف كان العرس ؟

ـ كان رائعاً جداً ، أنا سعيدة جداً لها .

ـ يبدو أنها مقربة لديك .

ـ هي توءم روحي .

ـ العقبى لك يا حبيبتي .

ـ أشكرك .

ـ زهرة ، كنت أريد إخبارك أمراً ما ، ولست أدري هل هذا وقت مناسب أم لا .

شعرت زهرة بالتوتر بعدما وصلتها تلك الجملة الأخيرة ،

وانقبض قلبها فجأة فترددت ثم ردّت عليها متوجسة :

ـ تفضلي .

ـ في الحقيقة لقد أخبرني ريان منذ قليل أنه حينما تكلم مع والده عنك رفض أن يتقدم لخطبتك ؛ لأنه يتمنى لابنه زوجة تناسب شهادتها شهادته الجامعية ، يريد لابنه طبيبة أو مهندسة مثله .

تألمت ، وكأن أحدهم ألقى بكرةٍ من الجمر في وجهها ، وشعرت بدوار خفيف ، ولكنها تماسكت ، أو تظاهرت بذلك ، لن تبكي حتى إن لم تطعها الدموع ، « لا تفعلي ، لا تفعلي » ، وفي أقل من ثانية ردت :

ـ رضيت بقضاء الله ، جيد أن الأمر لم يطل كثيراً .

ـ لا تحزني يا بنتي ، سيعوضك الله خيراً .

ـ لا ، لست منزعجة ، ولكنني أتعجب من تفكير والده . . .

« بل هي منزعجة ، منزعجة جداً » .

ـ وأنا أيضاً مثلك ، لكن ما الفائدة ؟ لقد انصاع لرغبة أبيه .

ـ على العموم ، يكفيني أنني تعرفت عليكِ .

غامت الدنيا حولها بسبب تلك العبرات المتمردة ، « لمَ البكاء يا حمقاء ؟ ألم تتوقعي ذلك وتنتظريه أيضاً ؟ » .

ـ وأنا أيضاً يا زهرة ، سأظل على اتصال بك ، أنتِ كبناتي الآن .

أغلقت الحاسوب وظلت متماسكة كي لا تحزن ، ظلت تقاوم وتقاوم ، قررت أن تشغل تفكيرها بشيء آخر ؛ كي لا تحزن على شيء كانت أصلاً تتوقع له تلك النهاية ، ولكنها ظلت منزعجة من سبب رفض والده ، وترى في ذلك ظلماً من الآباء ، إهانة جديدة ولكن بطريقة مختلفة ، هل هذا طبع الرجال ؟!

بعد أيام قليلة تلقّت اتصالاً من هبة ، والتي سألتها عن آخر الأخبار .

قالت بتجلّد :

ـ انسي القصة يا هبة .

صدمت هبة هي الأخرى ، فقالت بترقب :

ـ لماذا ؟ ما الذي حدث ؟!

ردت بأسى تغلبت عليه سريعاً :

ـ لم يحدث سوى قضاء الله ، قلت لك سابقاً أنها كانت مجرد قصة ، وانتهت برفض والده لي لأنني لست طبيبة أو مهندسة .

ـ نعم ؟! ماذا تقولين ؟

أجابتها باستسلام :

ـ كما سمعت ، انتهى الفيلم السنيمائي يا عزيزتي ، سأركز في امتحانات القبول وحسب ، أصلاً كان ذلك شغلي الشاغل قبل ظهور ماجدة ، على العموم لا فائدة ، ما حدث قد حدث .

قالت مواسية :

ـ لا تحزني يا حبيبتي ، لعله خير .

ردت بثقة :

ـ بل هو الخير ، لقد تنازل عني بسبب رفض والده دونما نقاش ، وهذا كافٍ لأنسى أمره .

ـ أنت محقة .

قالت مازحة :

ـ أتعلمين ما هو الشيء الوحيد الذي حزنت عليه ؟

ـ ما هو ؟!

ـ اسمه ، يناسب اسمي جداً ، فالزهرة لتحيا تحتاج لريان يرويها ويهتم بها ، لم انتبه من قبل إلى هذا الاسم (قالتها ضاحكة) .

تعالت ضحكة هبة وهي تقول :

ـ فعلاً ، إذاً ضعيه ضمن قائمة المواصفات .

ـ يبدو أنني سأفعل .

وتضحك هي الأخرى بشدة ، فالضحك يعالج الهموم .

* * *

مر أسبوعان وعادت إلى حياتها الطبيعية ، وكانت تطرد طيفه كلما مر بها ، قاومت كثيراً وقلما كانت تفلح ، اندمجت أكثر في مذاكرتها لتجتاز اختبارات القبول للدبلومة الخاصة ، كان كل شيء يسير على ما يرام حتى حدثتها ماجدة ! كانت قد طلبت منها ترشيح عروس لابنها نفسه الذي كانت تريده لزهرة ، اقترحت عليها إحدى صديقاتها فطلبت من زهرة أن تعرض عليها الأمر وتأتيها بالرد ، وبعد يومين هاتفتها لتعرف النتيجة :

ـ ها ! ما الأخبار ؟

ـ كما توقعتُ ، لقد رفضته والدتُها بسبب السفر .

ردت بانفعال :

ـ هذا تفكير خاطئ ، ومن يضمن لها أنها إذا تزوجت في بلدتها من أحدهم ألا يطرأ عليه السفر بعد الزواج ؟

خشيت أن تعيد عرضه عليها ، فقالت بهدوء في محاولة لامتصاص انفعالها :

ـ يا أمي ، الموضوع منته بالنسبة لي ، وقلت رأيي لك مسبقاً .

ـ أنا لا أقصدك أنت يا زهرة ، فموضوعك لم ينته بعد !! أقصد مؤمنة .

لقد اعتادت على صدمات ماجدة ، فقالت بذهول :

ـ ماذا ؟!

يبدو أنها ندمت أن تفلت لسانها بذلك ، فحاولت استدراك الموقف قائلة :

ـ لا تشغلي بالك ، فقط عليك التركيز في امتحاناتك المقبلة .

أنهت ماجدة اتصالها مع زهرة وتركتها في حيرة من أمرها .

ـ ترى ماذا تقصد من كلامها هذا ؟ هل هي زلة لسان أم أنها تقصد شيئاً آخر ، أم أنني قد أسأتُ الفهم ؟

كانت تلك المكالمة كافية لتقلب حالها رأساً على عقب ، ولكنها قررت أن تخرج من تلك الحالة وأعادت الاتصال بماجدة بعدما عادت إلى بيتها ، حيث كان وقت المكالمة في الحضانة الخاصة التي تعمل بها منذ عام .

ـ خيراً يا بنيتي .

ـ معذرة يا أمي لم أستطع الانتباه إلى كلامك حينما كنتُ في عملي ، أعيدي علي ما قلتِ .

ـ قلت لك أن رفض صديقتك ووالدتها لابني بسبب السفر غير صائب .

ـ من يسمعك يا أمي يظنه ابنك بالفعل .

ـ هو وريان وأنت أشعر أنكم جميعاً أبنائي .

ـ صحيح يا أمي ، لماذا قلت أن موضوعي لم ينته ؟

ترددت ماجدة ثم قالت :

ـ لأنه لم ينته يا زهرة ، ولا أريد أن أشغلك بتفاصيله الآن ، فقط انتبهي إلى مذاكرتك ، وعندما تنتهي اختبارات القبول سأشرح لك الأمر .

ـ لا يا أمي ، لقد نسيت ذلك الموضوع ، ولا أريد أن أشغل نفسي به مجدداً .

ـ ومن قال اشغلي نفسك به مجدداً ؟ أنت ستكونين بعيدة عنه أصلاً .

ـ لا أفهم شيئاً .

ـ وهذا هو المطلوب ، هيا ! ذاكري بجد ، نريد أن تلتحقي بالدبلوم الخاص .

ـ حاضرة .

وتنتهي المكالمة ويبدأ بصيص أمل يعود إلى قلب زهرة ، كلما حاولت أن تقضي عليه يأبى وبشدة ، واندمجت في مذاكرتها ، واندمجت ماجدة أيضاً في تنفيذ خطتها .

* * *

كان مندمجاً في عمله فرنّ هاتفه ، أخرجه من جيبه وقد توقع مسبقاً هوية المتصل ؛ فلقد اعتاد على هذا الاتصال منذ فترة ، نظر إلى شاشة الاتصال وابتسم ، لقد صدق تخمينه هذه المرة أيضاً ، ثم أجاب .

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

هو مازحاً : لو لم تتصلي اليوم لشعرت بالقلق عليك .

ـ كفّ عن هذا وأخبرني ، إلام توصلت ؟

ـ هو متظاهر بعدم الفهم : في ماذا ؟

ـ لا تراوغ يا عزيزي ، هيا أخبرني .

ـ أريد أن أسألك سؤالاً واصدقيني القول .

ـ تفضل .

ـ لماذا تصرين على هذه الفتاة بالذات ؟

ـ لأنني أعرفها كما أعرفك جيداً ، هي أنسب بنات حواء لك .

ـ كيف تقولين ذلك وأنت لم تتقابلي معها أصلاً ؟

ـ ربما أكون فعلاً لم أقابلها قط ، لكنني أشعر كأني أعرفها منذ زمن ، وصدقني هي فتاة ممتازة .

ـ يا أمي أنا لا أعيب فيها ، ولكنني أخبرتك من قبل بظروفي .

ـ يمكنك أن تتحدى هذه الظروف ، هي تستحق يا ريان ، صدقني .

ـ أتعلمين عاقبة إصرارك هذا ؟

ـ أجل ، كل خير ، صدقني .

ـ حسناً ، سأضعها تحت الاختبار ، وعندها أقرر هل تناسبني أم لا .

ـ تناسبك ، تناسبك جداً جداً ، ثق بي .

ـ وهل يا ترى حدثتيها عني أم لا ؟

قالت بحزم : طبعاً لا ، ماذا سأقول لها أصلاً ؟!

ـ جيد .

انتهى الاتصال وعاد ليستكمل عمله ، ولكنه بدأ يفكر في أمر تلك

الفتاة كي يصل إلى قرار مناسب يصرف عنه إلحاح ماجدة المتكرر ، وعندما هم بالانصراف من عمله التقى بموظفة الاستقبال الخاصة بالمكتب الهندسي الذي يعمل فيه فاستوقفته .

ـ لحظة يا مهندس ريان .

عاد خطوتين إلى الوراء ثم نظر لها باستسلام وقال :

ـ خيراً يا أسماء ؟

ـ هل فكرت في موضوعنا ؟

زفر ببطء وقال :

ـ ألم تملّي بعد من التحدث معي فيه ؟

ـ البنت تريدك ، فكر في الأمر .

تأفف منزعجاً وقال :

ـ أفكر في ماذا ؟ قلت لك مراراً وتكراراً أنهي هذا الموضوع ، تلك الفتاة لا تناسبني أبداً ولن أفكر فيها يوماً من الأيام .

ردّت مترجية : أعطها فرصة واحدة فقط على الأقل ، فلربما تنجح في جذبك لها .

احتقن وجهه وضرب بقبضة يده على مكتبها جعلها تفزع وقال بنبرة تهديد :

ـ سأقولها للمرة الأخيرة ، لو فتحتِ هذا الموضوع مجدداً ستندمين ، لن أفكر فيها ، بل أقولها لك صراحة ، أنا أشمئز كلما وقع عليها بصري ، من سأرتبط بها لها مواصفات خاصة لا تتوفر أحدها في هذه الفتاة ، هل فهمتِ ؟

ابتلعت أسماء ريقها وهي تنظر إليه بوجوم وقالت بصوت مبحوح :

ـ كما تريد .

تركها وغادر المكتب وهو في ضيق شديد من هذا الحوار الذي ملّ من تكراره ، وتوجه نحو موقف الحافلات فاستقل إحداهن وسارت به حتى وصل إلى مكان نزوله في مدينته التي تطل على بحيرة كبيرة ! ظل يتذكر المواقف التي رأى فيها هذه الفتاة سالفة الذكر ، وكلما تذكر تلميحاتها له عقد جبينه بنزق ، « ما هذا التبجح ؟ أين الحياء ؟ » ليس ذنبه أنها أعجبت بشخصيته وإلا لتحمل وزر غيرها الكثيرات ، شعر أنها تراقبه ، لكن عفواً حتى إن كانت معجبة به كيف لها أن تكشف له الأمر بهذه الطريقة ؟ لا ، إنها بعيدة كل البعد عن فتاة أحلامه .

وصل إلى المنزل بعد صلاة العشاء فتناول طعامه ثم دخل حجرته واستلقى على فراشه فتذكر اتصال ماجدة فتمتم :

« سنرى من أنت يا آنسة زهرة » .

* * *

عندما قرر مراقبتها تغيبت عن الفيس ، كان كل يوم يبحث عن تواجدها داخل المجموعة دون فائدة لمدة أسبوع ، فاستغل تواجد ماجدة على الفيس وبدأ يحادثها :

ـ السلام عليكم ، كيف حالك أمي ؟

ـ وعليكم السلام ، بخير يا بني .

ـ لماذا انقطع عني اتصالك ، هل أزعجتك في شيء ؟

ـ لا يا بني ، كنت أمرّ بوعكة صحية الفترة الماضية .

ـ لا بأس عليك .

ـ أشكرك .

ـ لاحظتُ فتورَ النشاط في المجموعة منذ أن تغيبتِ .

ـ فتور في النشاط ! هكذا إذاً ، قل أنك تسأل عن زهرة يا مراوغ .

ارتبك فرد : أنا ؟! أبداً .

ـ أبداً ! إذاً عيني في عينك .

امتزج مزاحه بحرجه فقال :

ـ مشكلتك أنك تفهميني يا أمي .

ـ أفهمك وأفهمها ، وأشعر أنكما كأبنائي ، لذلك أنا مصرة أن تفكر فيها ، صدقني هي تشبهك تماماً .

ـ وأين هي أصلاً حتى أفكر فيها أو لا .

ـ ها قد اعترفتَ وصرحتَ بسبب سؤالك عني ، حسناً حسناً ، كانت متغيبة بسبب اختباراتها .

ـ أي اختبارات ؟! ! نحن في بداية الدراسة .

ـ ألم أخبرك أنها تستكمل دراساتها ، كان لديها اختبارات قبول .

ـ جيد ، هذا جيد .

ـ ستدخل قريباً الفيس بوك ، لا تقلق .

ـ أنا لست قلقاً أصلاً .

ـ سيعاود المراوغة من جديد !

ـ أمزح معك يا أمي ، هل منعوا المزاح ؟!

وعلى غير المتوقع دخلت زهرة صفحتها الشخصية واستهلت دخولها بمراسلة ماجدة التي أنهت حديثها مع ريان قائلة :

ـ ها هي ابنتي الحبيبة قد وصلت ، هيا انصرف الآن ولا تكن عزولاً بيني وبينها .

ـ تقصدين من ؟!

ـ ومن غيرها ، زهرة طبعاً .

لا يدري لماذا تسلل إليه شعور بالفرح عندما أخبرته بذلك فقال :

ـ هل تخليتِ عني بمجرد وصولها ؟

ـ أجل ، أنا تخليت عنك ، هيا اذهب الآن ، أنا أتحدث معها .

ـ هكذا إذاً ، تذكري هذا يا أمي .

وأغلق المحادثة ثم رفع منشوراً على صفحة المجموعة ، وجلس ينتظر هل ستعلق زهرة عليه أم لا ؟

« أحياناً نقع في الحب سهواً ولا نشعر بذلك إلا إذا تغيب الحبيب ، فنجد ناقوساً يدق بداخلنا لننتبه إلى غيابه ، فنطلبه ولا ندري أنه الحب » .

وعلى الطرف الآخر تتحدث ماجدة مع زهرة :

ـ كيف كانت الاختبارات يا بنتي ؟

ـ الحمد لله ، انتهت على خير .

ـ جيد ، إذاً أريد منك تفاعلاً في مجموعتي .

ـ سأفعل ولكن بحساب آخر لي ، ومن فضلك يا أمي لا تكشفي هويتي .

ـ لك هذا ، ولكن هلا أخبرتني السبب ؟

ـ لقد فكرت كثيراً في الفترة الماضية ، أنا لن أسمح لأحد أن يتعرض لكرامتي ، ولن أسمح له أن يضعني ضمن بدائل ، قلت لي أن والده يرفضني ، لذلك سأنسحب بكرامتي ، ولن أنتظر تعطفه علي هو أو غيره ، سأركز في دراستي فقط .

تفهمت ماجدة ما ترمي إليه زهرة فابتسمت ، هي تعلم مع من تتحدث جيداً ، وليس أمامها سوى مجاراة تلك الطفلة الغاضبة .

ـ كما تشائين ، أنت محقة ، وإن كان يريدك يجب أن يسعى هو إليك سعياً .

وبالفعل قل تواجد زهرة في المجموعة بحسابها الأساسي ، وقليلاً ما كانت تعلق على منشور بها ، لكنها لم تكف عن مراقبته ، وجدته يهتم جداً بمنشوراتها كزهرة ويتجاهل باقي المنشورات !

* * *

وجاء يوم ميلاده (١٩/ ١٠) فأعدت له ماجدة حفلاً داخل المجموعة وطلبت من زهرة أن تشارك فيه فقبلت ، كان يترصد ردود

أفعالها ليكوّن نظرة صحيحة عنها ، وكانت تساعده ماجدة في هذا الأمر حتى انتهى الحفل وخرجت زهرة وريان وكل منهما يشعر براحة تامة تجاه الآخر . أما زهرة فقررت أن تنشغل بدراستها كي لا تتعلق به أكثر وهي لا تدري نتيجة تعلقها هذا ، ولكن هيهات هيهات ؛ كان بداخلها شيء يسوقها من وقت للآخر أن تدخل المجموعة لتتتبع منشوراته في صمت ، بينما عقد هو العزم أن يجمع كل المعلومات اللازمة عنها ، هل وقع تحت تأثير سحر ماجدة هو الآخر حتى يصبح في يوم وليلة متيماً بزهرة ؟!

وبدأت حملته الاستخبارية ، وكلف بتلك المهمة كل من يعرفه شخصياً ويمكنه الوصول إلى معلومات مؤكدة عن زهرة وكان من ضمنهم (الأستاذة) .

كان في تلك الفترة يدخل من وقت لآخر المجموعة علّه يجد أثراً لوجود زهرة في هذا الوقت ، فإن وجد لها منشوراً أو تعليقاً يشعر بسعادة وارتياح شديدين ، وإن لم يجد يشعر بضيق ووحشة ، ويظل ينتظر وينتظر ربما تدخل بعد قليل ، بالله ما هذا ؟!

الأستاذة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ريان : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ها ؟! ما الأخبار يا أستاذتي ؟

ـ كل المصادر تؤكد أن الفتاة على خلق ، ولم أجد شيئاً يؤخذ عليها ، نصيحتي يا بني ، توكل على الله ، هذه الفتاة تناسبك جداً .

ـ هل أنت متأكدة ؟

ـ طبعاً ، هل تشك في قدراتي يا مهندس ريان ؟

ـ يجب أن أتمهّل أكثر ، فهناك معلومات أخرى يجب أن أعرفها بنفسي .

مجرد كابوس !

في حوالي الساعة الواحدة ظهراً جلست زهرة بجوار ولاء في الحافلة أثناء عودتهما من الجامعة ، وإذ بها تفاتحها فيما لم تتوقعه :

ـ زهرة ، كنت أريد رأيك في أمر ما ؟

قالت بفضول : تفضلي .

ـ هناك شاب يبحث عن عروس ، هو شاب جيد ومناسب جداً ، أنا أريد ترشيحك له .

ـ هات ما عندك يا ولاء !

ظلت ولاء تسرد بيانات ذلك الشاب ، وعندما انتهت قالت لها زهرة :

ـ عرضك مرفوض .

التفتت إليها ولاء منكرة :

ـ لماذا يا زهرة ؟ هل ستظلين ترفضين هكذا كل من يتقدم لخطبتك ؟

ـ أجل ، طالما ليس به جميع المواصفات التي أتمناها .

ـ كوني واقعية يا عزيزتي ، لا يوجد إنسان كامل .

ردت معاتبة :

ـ وأنا لا أبحث عن إنسان كامل يا ولاء !

ـ ولكن من الصعب أن تجدي كل هذه الصفات في شخص واحد .

ـ وماذا إن كان ظني بالله غير ذلك ؟

ـ ونعم بالله ، ولكن فكري جيداً ، الشاب له مميزات عدة .

ـ لكنه ينقصه شرط أبي يا ولاء ، الشهادة الجامعية .

قالت معترضة :

ـ عفواً ، كم من جامعي غير مثقف ولا يملك فكراً ناضجاً ، وكم من غير جامعي عنده ثقافة ومنفتح في تفكيره .

لا تعلم زهرة لماذا ظهرت صورة ريان أمامها في هذه اللحظة ،

وظلت تقارن بينه وبين ما تقوله ولاء عن الشاب الآخر فتجده يتفوق عليه في نظرها ، أتراها لم تعد ترى سواه ؟!

زفرت قائلة :

ـ وماذا لو كان هناك جامعي مثقف وبه كل الصفات التي أتمناها ؟

ـ أين ؟!

ـ لا بدّ وأنه موجود يا ولاء .

ـ اصدقيني القول يا زهرة ، هل هناك شيء تخفيه عني ؟!

نظرت زهرة عبر نافذة الحافلة وترددت هل تخبر ولاء أم لا ؟ وماذا ستقول ؟!

ـ إذاً صحَّ تخميني ، هيا اعترفي .

نظرت لها زهرة وقد تفلتت منها الكلمات :

ـ أنا لست واثقة من شيء يا ولاء ، ولا أعلم ماذا أقول .

ـ قولي ما حدث .

ـ حسناً .

وظلت تقصّ على ولاء أمر ريان ، والثانية لا تصدق ما تحكيه حتى أنهت حديثها وقالت :

ـ ما رأيك فيما قلت ؟

بدا عليها الاعتراض فقالت :

ـ في الحقيقة لست أدري ما أقوله لكِ .

ـ قولي ما يحلو لك .

قالت بلوم :

ـ كيف تثقين في امرأة لا تعرفينها ولم تقابليها أبداً ؟!

ـ صدقيني لست أدري ، أنا أثق فيها جداً ، ولقد تحدثت معها عبر الهاتف فتأكد شعوري تجاهها .

هزت رأسها اعتراضاً وهي تقول :

ـ لو كنتُ مكانك لما فعلت ذلك أبداً .

عقدت حاجبيها استعطافاً قائلة :

ـ ولاء ، أنا أثق بأن الله لا يضع في طريقي شيئاً أتمناه ثم لا يكون لي ، أنت بنفسك قلت من الصعب أن أجد من يحمل كل المواصفات التي أتمناها ، وها هو ذا ريان يحمل كل تلك الصفات !

ـ على العموم ، انتبهي جيداً حتى لا تتعرضي لأية خسائر .

ـ اطمئني ، أنا أفعل ذلك .

وبعد أن توقفت الحافلة افترقتا ، هذه نقطة الخلاف بينهما ، ولاء تحسب حساب كل شيء ، وتنحي عاطفتها في مثل تلك الأمور ، ربما هي ميزة افتقدتها زهرة ولكنها تفضل أن تسير وراء قلبها دائماً لأنها قد سلمته لله ، وتثق به تمام الثقة ، هل رفضها لعرض ولاء كان صواباً ؟!

* * *

ضيَّق ما بين حاجبيه ، وتسارعت ضربات قلبه بعدما وقعت عيناه على تلك الجملة الأخيرة التي أرسلتها إليه ماجدة ، فأسرعت أنامله وكتبت على لوحة المفاتيح :

ـ ماذا ؟! !!

ـ كما رأيتَ ، ستتم خطبتها .

ـ خطبة من يا أمي ؟!

ـ زهرة يا ريان ، ستتم خطبتها .

ـ كيف يحدث هذا ؟!

ـ كما يحدث لكل فتاة في مثل عمرها !

ـ وماذا عني ؟

ـ وهل عندك مشكلة في ذلك ؟ لطالما كنتُ ألحّ عليك أن تفكر

فيها ، وقلت لك أكثر من مرة أن تتقدم خطوة ، ولكنك لم تصغِ إلي ، وتلك هي النتيجة .

ـ هذا ليس صحيح ، أنا بالفعل كنت أفكر فيها ، وبالفعل أقوم بجمع كل البيانات اللازمة عنها لأتأكد أنها مَن تناسبني .

ـ لقد تأخرتَ يا ريان ، تأخرت كثيراً .

ـ أين هذا التأخير ؟ لم يمض على حديثنا غير شهر أو أقل .

ـ وكم من المفترض أن تنتظر كي تأخذ خطوة ؟

ـ يا أمي ، يجب التأني في هذا الموضوع ، إنها صفقة العمر .

ـ إن كنتَ تتأنى فغيرك لن يدع لك فرصة يا بني ، لقد قلت لك : الفتاة تستحق السعي إليها .

ـ وكيف تقبل هي أصلاً بذلك ؟

ـ وهل كنتَ تتوقع أنها ستقضي عمرها في انتظارك يا ريان ؟ هي فتاة ومن حقها أن تفرح كباقي الفتيات ، ثم من أنت أصلاً بالنسبة لها لتضعك في الاعتبار ؟

رد مصدوماً : ماذا تقولين ؟! !

ـ أقولُ ما فهمتَ ، هل تريدها أن تنتظر تعطفك عليها لمجرد أنك تعلق لها على منشور أو تعجب بتعليقاتها ؟! !

زفر ريان بحرارة وضرب بقبضة يده المكتب ، ثم أغلق الحاسوب وأمسك برأسه والفكر يعصف به :

« كيف ؟ كيف يحدث هذا ؟ كيف لم تنتبهي إلى اهتمامي بك يا زهرة ؟ كيف لم تنتبهي إلى ملاحقتي لمنشوراتك وتعليقاتك ؟ إنه خطئي أنا ، لقد تأنيتُ أكثر مما ينبغي ، معقول ، هل فقدتك ؟ لا أصدق أنك ستتفلتين من بين يدي ، بل لا أصدق أن يجرح قلبي الذي أحبك » .

تفاجأ ريان من كلمته الأخيرة ، كيف ومتى أحبها ؟ لا يدري .

« أجل ، لقد أحببتك يا زهرة ، لقد رسمت لك صورة في قلبي وذهني ، وصرت لا تفارقينني أينما حللتُ ، لقد جعلتك أميرتي وأنا أميرك يا زهرة ، لقد صارت الحياة أجمل منذ انتبهتُ إليك ، ولكن ما الفائدة ؟ لقد سبقني إليك أحدهم » .

* * *

مرت ليلته كئيبة ، وفي صباح اليوم التالي جلس أمام حاسوبه وفتح صفحة المجموعة ، ظل يقرأ منشورات زهرة السابقة وتعليقاتها ، وكلما وقعت عينه على كلماتها تسارعت دقات قلبه وشعر بندم شديد أنه قد أضاعها من يديه .

ـ صباح الخير يا بني .

انتبه ريان إلى محادثة ماجدة ، فشعر كأنه غريق يتعلق بقشه علّها تنقذه من الغرق فأجابها مسرعاً :

ـ صباح النور يا أمي .

ـ كيف حالك اليوم ؟

ـ الحمد لله على كل حال .

ـ هل فكرتَ في كلامي ؟

ـ وما فائدة التفكير ؟

ـ يمكنك أن تدركَ ما فاتك .

توقف الزمن به وصمت الكون حوله ولم يعد يسمع سوى ضربات قلبه المتسارعة التي تستغيث بماجدة أن تكمل كلامها .

ـ كيف ؟!

ـ لقد رفضت زهرة العريس .

ـ حقاً ؟! !!

اتسعت عيناه وتجلدت ملامحه ، ثم تهلل وجهه ، وتمنى لو احتضن الدنيا فرحاً بما قالته ماجدة له ، إنه الحب !

ـ أجل ، لقد رفضته يا ريان ، ربما تكون هذه آخر فرصة لك ، إن كنت جاداً لا تفلتها من بين يديك .

ـ هل أنت متأكدة من هذا يا أمي ؟

ـ أجل متأكدة .

لقد كان كابوساً بمعنى الكلمة وها هو قد استفاق منه أخيراً ، لا بدّ وأن يأخذ خطوة جادة ، هذه المرة حالفه الحظ ، لكن كيف يضمن أن يحالفه مجدداً ؟

* * *

يبدو أن ماجدة تجيد حبكَ لعبتها على الجانبين كي تربح في النهاية ، وها هي تفاجئ زهرة بطلب غريب بعد يومين .

ـ مرحباً يا زهرتي .

ـ مرحباً أمي .

ـ كيف حال الدراسة معك ؟

ـ الحمد لله ، إلى الآن الأمور تسير بخير .

ـ وفقك الله يا بنتي .

ـ أشكرك .

ـ زهرة ، أنا أنوي زيارتك ، فهناك احتمال أن أسافر قريباً .

ـ حقاً !! هذا رائع جداً ، أهلاً بك يا أمي في أي وقت .

ـ هلا أعطيتِني العنوان ؟

ـ طبعاً طبعاً .

وبالفعل أرسلت زهرة إليها العنوان بالتفصيل ظناً منها أن ماجدة ستقوم فعلاً بزيارتها ، ولكنها كانت تجهل الحقيقة .

* * *

ـ تفضل يا بني ، هذا عنوان زهرة .

ـ جيد جداً ، سأتوجه إليه في أقرب وقت إن شاء الله .

ـ ريان ، أرجو ألا يكون أقرب وقت عندك بعد شهر مثلاً .

ضحك بصوت مسموع وقال : لا ، اطمئني .

* * *

بعد يومين توجه إلى العنوان الذي أعطته إياه ماجدة ، فوجد مقهى على ناصية الطريق فألقى السلام على صاحبها وسأله :

ـ إذا سمحت أين منزل الحاج حازم ؟

ـ إنه هذا المنزل يا أستاذ .

وأشار بيده يميناً تجاه أحد المباني .

ـ هل أنت تسكن هنا منذ زمن ؟

ـ لا أنا هنا من فترة قريبة ، لكنني أعرف الحاج حازم منذ زمن ، خيراً يا أستاذ هل تريد منه شيئاً ؟

ـ وهل لديه أبناء ؟

تعجب الرجل من سؤال ريان وارتابه الشك ، فكرر سؤاله :

ـ هل تريد منه شيئاً يا أستاذ ؟

ـ كنت أسأل عن أحد أبنائه .

ـ أيهما تقصد ؟ الكبير أم الصغير ؟

ـ هل لديه سواهما ؟

ـ أجل ، ليس له سوى ولدين فقط .

ـ كيف يا رجل ؟! هل أنت متأكد ؟!

ـ طبعاً متأكد .

ـ لكن معلوماتي تقول أن لديه فتاة أيضاً .

ـ لا هذا غير صحيح ، ربما أنت تقصد رجلاً آخر .

ـ لا ، أنا أقصد الحاج حازم طارق .

إذاً معلوماتك خاطئة ، الحاج حازم ليس له سوى ولدين !

* * *

« زهرة ، هل فقدت صوابك ؟ كل هذا الكم من التعليقات دار بينكما دون أن تنتبهي ! » .

هكذا وبّخت نفسها بعدما توالت التعليقات بينها وبين ريان على أحد المنشورات المرفوعة على مجموعة ماجدة ، فقامت وأغلقت حاسوبها ، ووقفت أمام مرآتها تنظر إلى انعكاس صورتها وتلومها بقسوة قائلة :

« هل نسيت قراراتك السابقة يا هذه ؟ ألم تعاهديني أنك ستنسحبين من أمامه ؟ ماذا تنتظرين ؟ هل يرضيك أن يغضب والده من أجلك ؟ لا يا زهرة استيقظي من تلك الأحلام ، أم نسيتِ أن قلبك عانى الكثير ولن يتحمل جرحاً جديداً ربما يكون سبباً في هلاكه ؟! » .

وبدأت الدموع تنهمر من عينيها ويقطع البكاء أنفاسها ، فتركت العنان للسانها وقلبها الذي اعترف بحقيقة مشاعرها .

أجل ، لقد أحبته ، هذه هي الحقيقة ، ولم يعد بإمكانها أن تتصور أنه ليس نصيبها ، لقد أحبته ، متى وكيف ؟ لا تدري ، أحبته دون أن تراه وجهاً لوجه ، دون أن تسمع صوته ، دون أن يحدث بينهما أي حديث جانبي .

وظلت تبكي بكاء مريراً في حجرتها ولا يعلم عن حالتها تلك أحد من أسرتها ، قامت وفتحت نافذة حجرتها التي تكشف السماء المظلمة التي تناثرت بها النجوم كما تتناثر حبات اللؤلؤ على ستار

أسود ، وظلت تنظر إليها وتبكي وتناجي الله :

« يا رب أنت من وضعه في طريقي ، إن شئت صرفته عني منذ البداية ، إن شئت صرفت عني ماجدة ، إن شئت أرسلت لي غيره إن لم يكن من نصيبي ، يا رب لا تعلق قلبي بمن ليس من نصيبه ، يا رب إن لم يكن هو من قدرته لي زوجاً اصرفه عني وانزع من قلبي تعلقي به ، وإن كان هو نصيبي فقربه مني وقربني منه وأرح فؤادي من هذا العناء ، يا رب أرجوك إن كان هو من قدرته لي زوجاً أرني إشارة منك تصبر فؤادي ، يا رب احفظ قلبي من أن يفتن بما ليس له ، يا رب » .

لا تعرف كم مر عليها وهي على حالتها تلك ، ربما دقائق وربما ساعة ، لا تدري ، لكنها بدأت تشعر بشيء من الراحة يتسلل إلى قلبها ، فقد لجأت بروحها إلى من بيده مفاتيح كل شيء ، من يعلم سرها وأخفى ، من دبّر لها أموراً كثيرة من قبل وذلل لها كل الصعاب كما تمنت . شعرت بدوار شديد من طول بكائها وانقطع نفسها فأغلقت النافذة وارتمت على فراشها وهي تشهق شهقات متتالية كانت كافية لتفصلها عن العالم ، وتأخذها إلى بئر عميق .

ألم الانتظار

تقف في حجرة الاستقبال وترتدي ثوباً مبهجاً ، وهو يقف عن شمالها في بذلته التي زادت وسامته ، وصوت الزغاريد يتردد حولهما ، ثم أقبلت عليهما هذه المرأة التي تخطّت أول الثلاثين من عمرها بابتسامتها الخلابة ، ترتدي نظارة طبية وتمد يمناها إليه ، فسمعت صوتاً يخبرها بأنها أخته ، ثم نظرت تلك المرأة إلى زهرة وقالت :

ـ مبارك عليك .

وفجأة سقطت من أعلى فيصطدم جسدها بشيء غير صلب ، انتبهت فإذ بها على فراشها ، لكن كيف ، هي واثقة أنه كان حقيقة ، ظلت تنظر حولها لعل ما هي فيه الآن هو الحلم ، ظلت تتحسس جسدها وفراشها في ضوء خافت تسلل إلى حجرتها من هذا البدر الذي بدأ يتآكل ، ثوان معدودة إن لم تكن سِنة من النوم كانت كافية لتسافر بها عبر الزمن ويكشف لها جزءاً من الغيب ، ربما !

* * *

جلس في الحجرة التي يضع فيها حاسوبه فرأى انعكاس البدر على الشاشة ، نظر خلفه وابتسم عندما رأى البدر وقد أوشك على

الانصراف وكأنه يتحدث إليه ، فقام ووقف أمام النافذة وأسند جانبه الأيمن على الجدار وعقد يديه أمام صدره ، وظل ينظر للبدر ويحدثه :

ـ أرأيت يا صديقي ؟ كل معلومة أعرفها عن تلك الفتاة تعلق قلبي بها أكثر فأكثر ، أتصدق أنها من حيائها كانت تسير في الشارع فلا يشعر بها أحد ، حتى جارهم هذا الذي نفى أن يكون لوالدها ابنة تفاجأ أنها فعلاً ابنته !

سبحان الله ! كلما طرقت باباً يوصلني إليها وجدتها في نهايته تطل بإشراقة مميزة ، لقد صدق قلبي في حبها ولم يتبق سوى آخر خطوة ، هل تعلم ما هي ؟ . أجل يا صديقي ، أن أراها ، ولا أخفيك سراً أخشى أن تكون ملامحها غير تلك الصورة التي رسمتها لها !

ـ لحظة يا ريان هل يمكنك أن تضحي بها وبكل ما جمعته عنها لمجرد أن ملامحها ليست كما تتوقع ؟ هل هذا من العدل ؟

ـ لست أدري يا صديقي ، الصورة التي في مخيلتي لم تأت من فراغ ، لقد رسمتها هي لنفسها بصفاتها التي لا بدّ وأن تكشف عن شكل خاص .

ـ وماذا إن لم تكن كذلك ؟ هل ستتركها ؟

ظل ينظر ريان إلى السماء وتلألؤ النجوم ، وبعد تفكير قال :

ـ لا ، لن أتركها ، فالجمال ليس كل شيء ، لكن من حقي أن أراها أولاً ، حسناً سأراها بطريقتي الخاصة .

وعاد إلى حاسوبه وبحث ضمن قائمة الأصدقاء عن « الأستاذة » ثم أرسل لها رسالة :

ـ السلام عليكم ورحمة الله ، أستاذتي هلا أسديت لي خدمة ؟ أريد رؤية زهرة دون أن تشعر ، كيف ومتى ؟ لا أدري ، وهذه مهمتك .

بعد قليل جاءه الرد منها وفيه :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، بسيطة يا بني ، ولكن عدني ألا تعرف زهرة يوماً أنني فعلت ذلك .

ـ أعدك .

ثم أغلق حاسوبه وتوجه إلى فراشه لينام ، بل ليحلم بحبيبته التي رسمها في خياله فيبث إليها أشواقه التي ثار بها قلبه .

* * *

ـ هبة ، أريد التحدث معك في أمر هام .

ـ خيراً يا زهرة ؟

شعرت هبة أن هناك أمراً ما عندما عاودت زهرة الاتصال بها أكثر من مرة .

ـ هناك أمور استجدت وأريد إخبارك بها .

ـ لحظة سأجلس في حجرة منعزلة كي أصغي إليك .

وقامت هبة ودخلت حجرتها وأغلقت الباب ثم وضعت هاتفها على أذنها وقالت :

ـ يمكنك التحدث الآن .

ـ هبة ، لم ينته موضوعي بعد .

ـ أي موضوع ؟!

ـ ريان يا هبة ، ريان .

ردت بلهفة : هل أنت جادة ؟! ما الذي حدث ؟! هيا أخبريني .

ظلت تقصّ عليها ما حدث منذ أن تحدثت معها ماجدة عن عروس لابنها حتى الرؤيا التي رأتها ليلة البارحة ، وهبة في حالة ذهول .

ـ هذا كل ما حدث يا هبة ، ما رأيك ؟

ـ هذا عجيب يا زهرة ، القصة تزداد تعقيداً ولكن بداخلي

شعوراً أنها ستنتهي لصالحك .

ـ هل تعتقدين ذلك ؟

ـ طبعاً يا عزيزتي ، كل الدلائل تؤكد ذلك .

ـ وما الفائدة إن ظل والده معارضاً ؟

ـ هذا أكبر اختبار لحبه ، إن كان يريدك حقاً سيفعل المستحيل ليقنع والده .

ـ لدي شعور بأن ذلك لن يحدث .

ـ تفاءلي يا زهرة ، لقد عهدتك متفائلة .

ردت بوهن : أنا أشعر بالانهيار يا هبة ، لم أعد كما كنت ، أخشى أن تأتني ضربة قاضية .

ـ وما ظنك بالله ؟

ـ ظني أنه سيقدر لي الخير أينما كان .

ـ وسيكون الخير هو ارتباطك بريان .

ـ أتمنى من كل قلبي .

ـ زهرة ، هل أخبرت والدتك عنه ؟

ـ طبعاً لا .

ـ لماذا ؟

ـ أخشى أن تشاركني معاناتي تلك ، وفي النهاية أرجع بخفّي حنين فأسرق منها بصيص الفرحة التي بدأ يتولد لديها ، فهي في النهاية أم !

* * *

عاشت تلك الفترة تائهة ، شاردة ، لا تنتبه لشيء ، ولا تستطيع التركيز في دراستها ، وبدأ يلاحظ من حولها ذلك بما فيهم مديرة الحضانة التي تعمل بها ، فقررت التحدث معها في وقت استراحتها وجلوسها معها في حجرة الإدارة .

ـ زهرة ، هل أنت بخير ؟

ـ أجل ، أنا بخير الحمد لله .

ـ يكثر شرودك هذه الفترة .

ـ حقاً !

ـ أجل ، ألا تنتبهين إلى ذلك ؟

ردت مازحة : كيف سأنتبه إن كنتِ تقولين يكثر شرودي ؟

وتضحك فتضحك المعلمة ثم تقول :

ـ يبدو أنك تراوغين .

شعرت بحرج سرى في وجنتيها فقالت :

ـ لا أبداً ، أنت محقة وسأطلعك على الأمر في الوقت المناسب .

ـ يبدو أنني سأسمع منك خبراً ساراً عما قريب .

ـ أرجو ذلك ، كل ما أحتاجه الآن دعواتك يا معلمتي .

ـ نوّلك الله ما تتمنين حبيبتي .

ـ اللهم آمين .

* * *

انتهى من عمله واستقل الحافلة التي ستنقله إلى قريته التي تطل على الجزيرة المائية ، وعندما وصلت عند مكان بعينه ، تعمد أن ينظر إلى أحد المباني ، فهذا المبنى هو مسكن حبيبته التي لم يرها حتى الآن ، ظل ينظر حتى اختفى المبنى وقلبه يضرب صدره بشدة ويحدث نفسه :

« متى سأراك يا أميرتي ؟ لقد طال انتظاري ولم أعد أطيق الانتظار أكثر من ذلك » .

وصل إلى منزله ، وأول ما توجه ، توجه نحو الحاسوب ؛ ليراجع صندوق الرسائل ، وما أن جلس أمام الحاسوب حتى قال له والده معاتباً :

ـ يا بني ، أراك تطيل الجلوس أمام هذا الجهاز في الفترة

الأخيرة ، وهذا ليس جيداً ، انتبه كي لا تؤذي عينيك .

نظر إلى والده متفهماً وقال :

ـ فقط أنجز بعض المهام المطلوبة مني يا أبي وسأغلقه حالاً .

فتحت الصفحة الشخصية ، وبالفعل وجد رسالة جديدة من الأستاذة فتوتر ، واضطربت نبضاته ، وأغلق حاسوبه كي لا ينتبه إليه أحد ، ثم قام ليتناول طعامه الذي لم يشعر بمذاقه بسبب انشغال فكره بتلك الرسالة الواردة .

* * *

توقف الزمان مجدداً ، وانعزل عن العالم ، وظل ينظر إلى عينيها ويموج ببصره بينهما وكأنه سقط في بحر أزرق ، تسارعت أنفاسه ، وصار قلبه يطرق صدره بشدة حتى كاد أن يحطم ضلوعه ويفر منه فيسقط معه في ذلك البحر الأزرق ، وضع يده على صدره يطمئنه في الوقت الذي كان هو نفسه بحاجة إلى من يطمئنه .

ـ معقول ، هذه أنت يا زهرة ؟

وظل يقلب رسالة الأستاذة مراراً وتكراراً ليتأكد أنها من أرسلت تلك الصورة ، حتى لم يعد لديه أدنى شك أنها هي هي ، ففتح الصورة مجدداً وظل ينظر إليها ويحدثها :

ـ أخيراً رأيتك يا أميرتي ، أراك أجمل من تلك الصورة التي

نسجتها لك في خيالي بكثير ، كنت من قبل متمسكاً بك دون أن أراك ، أما الآن فمستحيل أن أتركك ، سأخطفك على جواد قلبي وأذهب بك بعيداً بعيداً ، أنت لي ، لن أتنازل عنك أبداً مهما تكالبت علي العقبات ، سأفعل ما في وسعي كي تكوني ملكي ، أعاهدك يا أميرة قلبي ، أعاهدك .

هكذا تمنت ، أن ترتبط بمن يعجب بأخلاقها دون شكلها ، لقد سبق وتفاجأت بأحدهم يقف مع إحدى صديقاتها يراقبها ، ففطنت إلى مرماه ، فتركت المكان وغادرت مع هبة إلى مدرج بعيد ، أزعجتها الفكرة جداً ، وانزعجت أكثر حينما أخبرتها صديقتها أن ذلك الشاب قريبها وأنه أعجب بها جداً ، استاءت من الطريقة واغتمت من نتيجتها ، وخاصة أنه ركز على إعجابه بشكلها وخلقتها ، لذلك تمنت بشدة ألا يتكرر ذلك ، وتمنت أن ترتبط بمن يعجب بأخلاقها ويرغب فيها دون أن يعرف شكلها ، اعتبرته صويحباتها ضرباً من الجنون ، واعتبرته هي رجاء من الله ، فكان ما تمنت كما اعتادت دائماً من خالقها !

* * *

عقدت حاجبيها وشعرت بضيق عندما وصلتها رسالة ماجدة ، فأجابتها بدون تفكير :

ـ طبعاً لا أقبل .

ـ لماذا ؟

ـ كيف تريدين مني يا أمي أن أتحدث معه بمفردنا ؟

ـ زهرة ، ستتحدثان على برنامج المراسلة ، أنا لا أقول لك قابليه في مكان ما .

ـ لا يا أمي ، لا يمكنني أن أتحدث معه على انفراد .

ـ سأكون متواجدة حينها وإن حدث أي أمر يزعجك أخبريني فوراً .

ـ ولماذا يريد الحديث معي منفرداً خارج المجموعة ؟

ماجدة : يريد أن يشرح لك وضعه يا زهرة كي يعرف هل تقبلين به أم لا .

ـ ماذا ؟! لم أفهم قصدك يا أمي .

ـ بل تفهمين ، يريد أن يتحدث معك قبل أن يتقدم إليكِ .

ـ لا يا أمي ، يمكنه أن يأتي إلى البيت ويتحدث كيفما يشاء .

ـ يا بنتي افهمي ، هناك أمور يجب شرحها لك أولاً قبل أن يدخل بيتكم .

ـ وما هي ؟

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ، أنا لا أعلمها ، وليس من حقي أن يطلعني عليها ، أمور تتعلق بطبيعة حياته ، ما شأني أنا بها يا بنتي .

ـ أنا خائفة .

ـ من ماذا ؟

ـ لست أدري .

ـ يا حبيبتي سأكون بجانبك وقت حديثكما ، لا تخافي .

دار هذا الحوار صباحاً قبل توجهها إلى الجامعة ، كان كافياً ليفصلها تماماً عمّا يدور حولها هذا اليوم ، كانت كلما مرت الدقائق تتشتت بين الفرح والخوف فرحاً بأن حبيبها سيخطو أول خطواته إليها ، وخوفاً لأنها لا تعلم أصلاً هل هو يحبها ومتمسك بها أم يريد التحدث معها لمجرد التسلية ، وبدأت تخطط كيف سترد على حديثه بجمود كي لا يكتشف حبها له .

* * *

جاء المساء حيث موعد اللقاء ، جلست أمام الحاسوب وحدثت ماجدة لتتأكد من وجودها ، وبعدها ظهر ريان وبدأ الحوار :

ـ السلام عليكم ورحمة الله أستاذة زهرة .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ـ طبعاً أنت على علم مسبق بسبب تحدثي معك الآن .

ـ عفواً ، لم أفهم قصدك !

ـ أقصد أن أمي ماجدة شرحت لك الأمر مسبقاً .

ـ لا لم تشرح لي شيئاً ، هي فقط أخبرتني أنك تريد التحدث معي ، خيراً يمكنني مساعدتك في شيء ؟

نظر إلى طريقتها في الحديث وتعجب :

ـ ما هذا الأسلوب الجاف ؟! هل هذه الفتاة الرقيقة التي كنت أتحدث معها في المجموعة ؟!

ثم دخل على محادثة ماجدة وأرسل لها :

ـ من هذه المخلوقة يا أمي ، أخشى إذا تكلمت كلمة إضافية ترشقني بحجر .

ـ كيف ؟!

ـ ألم تخبريها عني من قبل ؟

ـ بلى .

ـ إذاً لماذا تتظاهر بالجهل ؟

ـ تتدلل عليك يا فطين .

ـ تتدلل ! هكذا إذاً .

وعلى الجانب الآخر أرسلت لها زهرة :

ـ أمي ، ما رأيك ؟ قال كذا وقلت كذا .

ـ جيد جداً ، استمري هكذا .

أرسلت له رسالة تقول فيها :

ـ مع احترامي لك يا مهندس ريان ، لقد أصبح حائط رسائلي متاحاً لك بعد أن أجبت عن رسالتك ، فأرجوك لا تراسلني إلا للضرورة القصوى .

نظر ريان إلى تلك الرسالة فضرب كفاً بكف مذهولاً وحدث نفسه :

« من الواضح أنني أتحدث مع فتاة مجنونة ، أنت حقاً مجنونة يا حبيبتي ، ولولا جنونك ما أحببتك » وبعد أن تماسك أجابها باقتضاب :

ـ حسناً يا أستاذة زهرة ، ثقي أنني لن أزعجك .

ـ هذا لطف منك .

ـ هل أتحدث الآن وأعرفك بنفسي ؟

ـ تفضل .

ـ أنا ريان صابر ، في الخامسة والعشرين من عمري ، طبعاً أنا

خريج كلية الهندسة وأعمل حالياً في المدينة الجديدة ، في مكتب هندسي بالشارع المقابل للكلية مباشرة ، أسكن في إحدى قرى المحافظة تطل مباشرة على بحيرة كبيرة ، لدي أخت كبرى في بداية عقدها الثالث . . .

كانت هذه المعلومات المبدئية كفيلة لتصدم زهرة بها ، فتحدثت بصوت تسمعه قائلة :

« معقول ما تقوله !! لديك حقاً أخت كبرى قد تخطّت الثلاثين من عمرها ، وأنت تعمل في الشارع نفسه الذي تسكنه صديقتي هبة ! وبالقرب من الكلية التي أنا بها ! وتسكن في القرية نفسها التي يسكن بها جدي وأقارب أمي ! ورغم هذا كله لا أعرفك إلا على شبكة الإنترنت وعن طريق امرأة لا تعرفني ولا تعرفك شخصياً ، وتسكن بعيداً جداً عنا في محافظة أخرى ، هل هذا معقول ؟! » .

ظل يستكمل تعريفه بنفسه فلاحظ سكوت زهرة فقال :

ـ هل أنتِ ما زلت متواجدة يا أستاذة زهرة ؟

ـ أجل .

ـ ظننتكِ خرجتِ لأنك لم تتكلمي منذ بدأتُ حديثي .

ـ لأنني تفاجأت من كلامك .

ـ لماذا ؟!

أخبرته زهرة بما تمتمت به منذ قليل إلا أمر أخته ، فتفاجأ هو الآخر من تلك الصدفة العجيبة وسألها :

ـ وما هو اسم جدك ؟

وكانت المفاجأة أنه يسكن قريباً جداً جداً من بيت جدها ، ويعرفه شخصياً ، ويعرف معظم أفراد أسرتها أيضاً !

ـ أنا حقاً عاجزة عن التصديق .

ـ وأنا مثلك .

ـ عندي سؤال ورجاء اصدقني القول .

ـ تفضلي .

ـ لماذا أنا بالذات من وقع اختيارك عليها ؟

وكأنها كانت تبحث عن مكانتها بداخل قلبه لعلها تجد سلواها عما عانت خلال الفترة الماضية ، فقد قضت ثلاثة أشهر في حيرة من أمرها لا تعرف كيف ينتهي بها المطاف معه ، وليطمئن قلبها أيضاً أنه قد أحبها لشخصها بعيداً عن أي ضغوط ، ولا تدري أنها بسؤالها هذا قد تركت العنان لقلبه كي ينطلق بمشاعره الصادقة تجاهها ، كانت تنظر إلى كلماته وعيناها تبكيان فرحاً مما ترى ، وكأنه داوى بها تلك الجروح التي نالت قلبها الفترة الماضية فطببتها جرحاً جرحاً .

ـ هل عرفتِ الآن لماذا اخترتك أنت بالذات ؟

ـ أجل .

ـ لحظة ، ماذا لو اكتشفتَ أنني لست على قدر من الجمال ؟

ابتسم « هي لا تعرف » ، فأجابها :

ـ لا يهم . . . (سُرَّت بذلك جداً) ، فعقب :

ـ لقد رأيتك أصلاً .

تفاجأت وانزعجت وتحيرت هل توبخه على ذلك أم تعرف رأيه فيها ؟ فجاءه ردها من منعطف ثالث وردّت مستنكرة :

ـ كيف ؟

فأجاب : بطريقتي الخاصة .

أكلها الفضول فقالت :

ـ أخبرني من فضلك .

ـ لقد تعهدت لمن فعلت ذلك ألا أفصح عنها .

زهرة ، يجب أن تعرفي شيئاً هاماً الآن .

ـ خيراً !

ـ أنا متمسك بك ، ولا أريد لي شريكة حياة غيرك ، لكن هناك عقبات يجب أن أجتازها قبل أن آتي لخطبتك ، تلك العقبات لن تحل في يوم وليلة ، ولن تحل في أسبوع أو أسبوعين ، لذلك هل

يمكنكِ انتظاري ريثما أتجاوزها ؟

أجل ، كان هناك بعض القوة عندها تتقوى بها على أمل أن يلهمها المزيد ، ولم تتوقع أن تجد منه غير ذلك ، لذلك صدمتها عبارته تلك بشدة ، وانهار أمام عينها ذلك الحلم الجميل الذي بنته لها كلماته الأولى . أغمضت عينيها بشدة علّها تتشبث ببصيص الأمل الذي هم بالرحيل هو الآخر ، شعرت أنها تحت تأثير مخدر ما سيذهب بها إلى ظلام دامس ، وانسابت الدموع من جديد وظل يصرخ عقلها قائلاً :

« ولماذا تتحدث معي الآن إن كنت لا تستطيع المجيء ؟ لماذا لم تتركني أتألم لتعلقي بك في صمت بدلاً من أن ترمي بي في جمر الانتظار ؟ لماذا تفعل بي هكذا ؟ لماذا يحدث كل هذا معي ؟ لماذا ؟! ! » .

ـ هل ستنتظرينني يا زهرة ؟!

وضعت زهرة رأسها على سطح مكتبها تكتم شهقاتها وتتمتم :

« زهرة ! وهل ما زالت زهرةٌ زهرةً » ، لقد ذبلت الزهرة وانحنت وتساقطت أوراقها ، ولم يعد يسمعها إلا خالقها ، وحده من يمكنه إغاثتها من الهلاك ، فيمطر عليها صيب لطفه ، كنت تخلصت أخيراً من معاناتي ، واستقرت حياتي بعدما عادت

صداقاتي ، وتغيرت شخصيتي منذ عرفت هبة ، فصرت أحب كل الناس ، وسامحت كل الناس ، كنت أضحك من قلبي ، كنت أجهل ما هذا الشيء الذي كان يطلبه قلبي ويبحث عنه ولم يجده بين صويحباتي ، فرغم أنني وجدت من صرن لي كالأخت التي حرمت منها ، إلا أنني تفاجأت بفراغ في قلبي بحاجة إلى من يسده ، حتى ظهرتَ أنت في حياتي فقلبتها رأساً على عقب ، وتسألني الآن بعد كل معاناتي التي لا تشعر حتى بها « هل ستنتظرينني يا زهرة ؟! » .

أول خطوة

تردد كثيراً قبل أن يأخذ تلك الخطوة ، وفكر كثيراً أيضاً ، ونظم الجمل والإجابات التي حتماً ستطلب منه ، ظل يراقب تحركاتها وهي تحضر له بعض الفاكهة كي يتناولها ، وهي لا تدري أنه لا يريد الطعام ، بل يريدها هي كي يتحدث معها ، كان يهز قدميه بتوتر ووجهه شاحب ، جلست بجواره وطفقت في تقشير بعض الفاكهة ، ثم نظرت إليه وقالت :

ـ هات ما عندك يا حبيبي .

تفاجأ من موقفها ، فها هي قد اكتشفت أمره كما تفعل دائماً ، فحكّ جبينه بيمناه ثم قال :

ـ كشفتِ أمري مجدداً !

نظرت له وقالت ضاحكة :

ـ ومن يفعل إن لم أفعل .

تنحنح وقال :

ـ في الحقيقة أنا أريد أن . . . أن أخطب يا حنان .

تركت ثمرة الفاكهة من يديها ونظرت لريان الذي يجلس قبالتها بتعجب وقالت :

ـ نعم ؟!

فكرر : أريد أن أخطب .

ضحكت استخفافاً قائلة :

ـ طبعاً أنت تمزح .

قال بحزم : بل أنا جاد جداً .

لانتْ ملامحها وهي تقول :

ـ هل أنت مدرك لما تقول ؟

ـ أجل ، مدرك تماماً .

ردت مستنكرة :

ـ ريان ، أنت لا تملك أي مقومات مادية تؤهلك لذلك .

رد مستعطفاً : لقد وضعت الخطة المناسبة التي تتكفل بتلك النقطة يا حنان .

ضيقت عينها قائلة :

كيف ؟!

شرح لها خطته التي أخذ يدرسها مراراً وتكراراً ، ولكنه كان يلمح في عينيها الرفض التام ، وعندما انتهى قالت :

ـ عفواً ، ما الذي يجبرك أن تضع نفسك في كل هذه الضغوط ؟ بينما يمكنك أن تكوّن نفسك أولاً ؟!

ـ وماذا إن كان ليس هناك متسع لذلك ؟

ـ كيف ؟!

اعتدل في جلسته قائلاً :

ـ ماذا إن سبقني إليها أحدهم وتمت خطبتها ؟

ردت بامتعاض :

ـ وما المشكلة ؟ هل خلا الكون من الفتيات ولم يتبق غيرها ؟!

نظر في عينيها وقال بإصرار :

ـ أنا لا أريد سواها يا حنان .

أومأت برأسها غير مقتنعة وقالت :

ـ ما زلت صغيراً يا أخي ، والحياة أمامك طويلة ، وبالتأكيد ستجد غيرها الكثيرات .

قال بجديّة أنكرتْها :

ـ لا أريد غيرها ، ولا أريد حتى أن أفكر في أن تكون لغيري .

ـ يا سلام ! متى وكيف حدث هذا ؟ وكيف عرفتها ؟! !

بدأ يقصّ عليها الحكاية وعينها تحدق به في محاولة منها أن تستوعب هذا الفيلم الهندي الذي يقصه عليها ، وما أن انتهى قالت له بكل حزم :

ـ اصرف نظراً عن هذه الفكرة ، الأمر مرفوض وبشدة .

نظر لها مستعطفاً :

ـ لماذا ؟! !

ـ السبب الأول الذي ذكرته لك كاف للرفض .

ـ ولكنني أحبها .

كررت إماءة الرفض وقالت :

ـ أنت تتوهم ، ستنساها مع مرور الوقت ، صدقني .

ـ لا أريد ، أرجوك ساعديني (قالها مستعطفاً وقد لان صوته) .

ـ يا حبيبي ، لو كان كلامك معقولاً لساعدتك !

أشار بكفه مستفهماً وقال :

ـ وما الغريب في الأمر ؟ فتاة تم ترشيحها لي وقمت بجمع كافة البيانات عنها ، وكلها تصب في صالحها فأحببتها ، ما المشكلة ؟!

ـ المشكلة أنك ما زلت صغيراً كي تحسن التصرف في مثل هذه الأمور .

عقد حاجبيه بنزق وقال :

ـ لست صغيراً يا حنان ، زميلي في العمل أصغر مني وتزوج قريباً .

ـ هو حر ، وحالة خاصة .

ـ ألا تتمنين السعادة لي ؟!

قامت من مجلسها لتجلس بجواره ، احتضنته بيمينها وهي تقول :

بل أتمنى كل السعادة لك ، ولكنني أكبر منك وأكثر خبرة في الحياة منك ، لذلك أفكر بمنطق صحيح ، لكن منطقك غير صحيح .

رد بيأس : هل هذا ما عندك ؟

قالت بتوجس : أجل ، وأتمنى لو تراجعت عن تلك الفكرة .

ـ لا أعدك بذلك .

انصرف يجرجر خيبة أمله وقد ضاق الكون به وتلونت الصورة أمامه بلون هذا الليل الذي يلتف حوله ، فقرر أن يتجه نحو البحيرة علّه يجد عندها بعض الهواء الذي حبس عن صدره ، سار بمحاذاتها يناجي ربه أن يفتح له تلك الأبواب المغلقة التي تجلس خلفها حبيبته التي تمناها من كل قلبه وروحه .

* * *

جلست الأم على تلك الأريكة تنظر إلى ابنتها التي تحكي لها قصة من قصص ألف ليلة وليلة وتنتظر أن تنهي حديثها بتلك العبارة « توتة توتة انتهت الحدوتة » ، لكنها تفاجأت بتلك النهاية المفتوحة التي وقفت عندها ابنتها ثم قالت :

ـ ما رأيك يا أمي ؟

حدجتها قائلة :

ـ رأيي في ماذا ؟!

ابتلعت ريقها وقالت :

ـ فيما أخبرتك به الآن .

ـ هل تريدين إقناعي أن تلك القصة ليست من نسج خيالك ؟ . . .

وأشارت بسبابتها إلى رأسها .

ردت بحزم : هي بالفعل ليست من نسج خيالي ، إنها حقيقية مئة بالمئة .

قالت استخفافاً : وماذا بعد ؟! !

ـ كل خير إن شاء الله ، سيتقدم بعدما يكون مستعداً .

ـ وما يدريك أنه صادق أصلاً ؟

ـ لقد عرفتُ شخصيته جيداً من خلال منشوراته وتعليقاته في المجموعة .

ـ يا سلام ! وهل الكلام يباع ويشترى ؟ يمكنه أن يزين كلماته بكل سهولة .

ـ أنت محقة ولكنني أشعر بصدقه يا أمي ، أشعر كأنني أعرفه منذ زمن .

طأطأت رأسها وقالت : أنا لا أصدق ما تقولين يا زهرة .

جلست تحت قدمي أمها ونظرت إليها مستعطفة إياها وقالت :

ـ وأنا لا أشك أبداً في صدقه يا أمي ، ولا تسأليني عن السبب لأني لا أجد سبباً ملموساً ، أشعر كأن قلبي يقاد إليه .

قالت بتردد وقد تأثرت بتصرف ابنتها :

ـ في الحقيقة يا بنتي أنا لا أجد ما أقوله لك ، ولا أملك سوى أن

أدعو الله أن يجنبك كل من يريد بك سوءاً ، وأن يرزقك بمن تتمنينه .

ـ وهذا يكفيني .

أشارت بسبابتها محذرة :

ـ لكن انتبهي جيداً يا بنتي كي لا تنخدعي بكلام قد يجعلك تندمين فيما بعد .

حركت رأسها يمنة ويسرة اعتراضاً وقالت :

ـ لا تقلقي يا أمي ، أنا حريصة جداً ، ثم إنه وعدني ألا يراسلني إلا للضرورة القصوى ، وحديثه السابق معي كان يتكلم بكل أدب ولم يزعجني بأية كلمة ، وفي الفترة القادمة سيكون حديثنا كما كان مجرد تعليقات وردود على صفحة المجموعة في حضور أمي ماجدة وباقي الأعضاء .

* * *

استيقظ صباحاً بعد ليلة سهاد طويلة ، فارتدى ملابسه وتوجه إلى العمل ، فلاحظ زميله أنه ليس في مزاج جيد فاقترب من مكتبه وقال :

ـ ماذا بك يا صديقي ؟ تبدو اليوم على غير عادتك ، لقد كان وجهك مبتهجاً في الفترة الماضية ، ما الذي حدث ؟

ـ أشعر بضيق يا باسم .

ـ لماذا ؟!

ـ في الحقيقة أريد أن أتقدم لخطبة إحداهن .

رد بحبور : رائع !!

ـ وللأسف هناك كثير من العقبات أمامي .

ضرب باسم كفه بخفة على مكتب ريان وقال :

ـ لقد راهنتُ أن تغيُّرك كان بسبب حبٍّ في حياتك ، مبارك يا صديقي .

هز ريان رأسه أسفاً وقال :

ـ علام تبارك ؟ لقد رُفض الموضوع بمجرد أن تكلمت فيه .

ـ وما المشكلة ؟ لقد حدث معي هذا ، وواجهتني صعاب كثيرة لكنني تخطّيتها كلها ، وكانت النهاية هي فوزي بحبيبتي التي صارت زوجتي أخيراً .

ـ وهل من المفترض أن أعاني أنا أيضاً كي يقبل طلبي ؟

ـ طبعاً ، بل ستسمع كلاماً يزعجك أيضاً .

طأطأ رأسه وقال : يبدو أنك تبشرني بما يسرني يا صديقي .

ضحك باسم وقال :

ـ أنا فقط أهيئك كي تستعد لمواجهة ما ستلقى من صعوبات إن صممت على موقفك هذا .

ابتسم ساخراً وقال : شكراً على هذا الإحباط يا صديقي .

ـ هيا قل لي من هي ؟ وكيف ومتى سرقت قلبك هذا . . . وأشار بسبابته إلى صدر ريان .

رد بمكر : لا ، يكفيك هذا القدر اليوم ، أما التفاصيل فلن أطلعك عليها إلا في الوقت المناسب .

رد بأسف مصطنع : هل هذا جزائي يا صديقي ؟

ـ أجل ، تفضل الآن وعد إلى مكتبك قبل أن يضبطك المهندس المدير ويخصم منك مرتبك اليوم .

وأبعد الكرسي المتحرك الذي يجلس عليه باسم بعيداً حيث مكتبه الخاص ، فنظر له الثاني وقال :

ـ للحديث بقية يا صديقي ، لن تفلت مني .

فأشاح بوجهه عنه ونظر إلى حاسوبه متجاهلاً إياه ، وابتسم .

* * *

مرت عدة أيام ولم يجدد ريان حديثه مع أخته ، فظنت أنه قد تفهم نصيحتها ، ولا تدري أنه قد ألقى بها في عرض الحائط ،

لا تدري أنه في كل يوم كان يفتح الفيس بوك ليتابع منشورات زهرة ويقرأ حديثها مع صويحباتها فيزداد تعلقه بها ، حتى اكتشفت الأمر ، فبدأت هي بالحديث معه .

ـ ريان هل ما زلت تفكر في تلك الفتاة ؟!

أومأ برأسه وهو يجلس قبالتها أن نعم .

ـ ألم تستمع إلى نصيحتي ؟

نظر متحدياً إلى عينيها وقال :

ـ ألم أخبرك أنني لن أفعل ؟

فقالت بتعجب :

ـ ألهذه الدرجة أنت متمسك بها ؟!

رد بحزم : بل وأكثر ، وقلتها لك : لن أفكر في غيرها ولن تكون هي لغيري .

رجعت بظهرها فأسندته على ظهر الأريكة التي تجلس عليها في حجرة الحاسوب في بيت أبيها وقد أغلقت بابها كي تتحدث مع أخيها على انفراد ، نظرت إليه وهو يجلس أمام حاسوبه وقالت بهدوء :

ـ لماذا تتمسك بها لهذه الدرجة ؟

ـ لأنني أحبها ، وأجد بها المواصفات التي أتمناها في شريكة حياتي .

ـ فكر جيداً يا أخي كي لا تندم بعد فوات الأوان .

قال مستعطفاً : يا حنان لقد استنفذت جهدي في التفكير حتى وصلت إلى تلك النتيجة ، لا أريد سوى زهرة .

قالت مبتسمة : اسمها زهرة .

طأطأ رأسه بحرج وقال : أجل اسمها زهرة وهي كالزهرة .

ردت بمكر مازحة : ريان وزهرة ، هذا لطيف .

وقعت تلك الكلمة في قلبه فكانت كالقشة التي يستنجد بها الغريق ، فنظر لها مترجياً وقال :

ـ هل ستساعدينني هذه المرة ؟

سكتت للحظات ثم قالت :

ـ حسناً ، سأتحدث مع أبي ، ولكن أتوقع رفضه .

ـ على الأقل يكون على علم بما أفكر فيه كي يسهل علي مناقشته فيما بعد .

قامت وتركته في حالة سكون بعدما أشعلت بداخله فتيل أمل جديد .

كان موقفها مكسباً بالنسبة له فهو يعلم جيداً أن والديه يقدّران جداً ابنتهما حناناً لأنها الابنة الكبرى ، ويستشيرانها في كثير من الأمور ويحترمان رأيها ، لذلك كانت هي أول من قرر ريان أن يتحدث معها ؛ لأنه يعلم أن لها تأثيراً على والديها ، لكن هو يعلم أيضاً كيف يفكر والده وأنه لا يريد سوى صالح ابنه الحبيب ، ولكن هل سيرى تلك الخطبة في ذلك التوقيت في صالح ولده ؟ كيف سيقبل الأب أن يضع ابنه نفسه في تلك المغامرة التي لا يملك مقوماتها المادية الأساسية في نظره ؟

أوشك ذلك الفتيل أن ينطفئ مبكراً ، ولكنه أحاطه بأمله الكبير وثقته في الله فهو قادر على كل شيء ، طالما يسعى إلى الحلال ؛ فكيف لا يصل إليه ؟

للقلب أحكام

عادت مساءً من الجامعة بعد يوم شاق من المحاضرات وتسليم ما كُلِّف إليها ؛ فقد اقترب موعد الامتحانات . تناولت غداءها ثم دخلت صومعتها التي يشهد كل ركن فيها على معاناتها التي لا يعلم حجمها إلا خالقها ، جلست على فراشها وتغطت بلحافها فشعر قلبها باحتياج شديد لجرعة من الحب تجدد حيويته بعد تلك الفترة الرتيبة ، لكن أنَّى لها بها ؟!

وبينما هي على حالتها تلك رنَّ هاتفها وبدون أن تنظر إلى شاشة الاتصال أجابت :

ـ السلام عليكم .

ولكنها لم تجد ذلك الصوت الذي كانت تنتظره ، بل لم تسمع صوتاً أصلاً ، أعادت النظر إلى شاشة هاتفها فتفاجأت أنه رقم غريب ، ظلت تصغي إلى الهاتف منتظرة من المتصل كشف هويته ، ولكنها لم تسمع صوتاً فأغلقت الهاتف .

بعد ثوان رن هاتفها مجدداً ، فنظرت هذه المرة إلى الشاشة قبل أن تجيب ثم ابتسمت وأجابت :

ـ السلام عليكم ، كيف حالك ؟

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، أنا بخير يا زهرة الحمد لله .

ـ هل اتصلت بي منذ قليل من رقم آخر ؟

ـ لا ، هذه أول مرة أهاتفك بعد الاتصال الذي جاءك مني وأنت في طريق عودتك إلى المنزل .

ـ حسناً وها أنا أنتظر هذا الاتصال يا صديقتي ، خيراً ؟ قلتِ أنك تحتاجين رأيي في موضوع ما .

ـ أنا أشعر بضيق شديد يا زهرة ، ولا أجد من أتحدث معه غيرك .

ـ وأنا كلّي آذان صاغية .

ـ تقدم لخطبتي شاب يفتقر إلى الكثير من الصفات التي كنت أتمناها في شريك حياتي ، وأنا لا أشعر بالارتياح تجاهه ، ولكن هناك من يمدح فيه لأنه ميسور الحال ويلومون علي أني أرفضه .

ـ وما هي الصفات التي تفتقدينها فيه يا حنين ؟

ـ أولاً وقبل كل شيء ليس على قدر كاف من التديّن ، فهو بالكاد يصلي ولا يهمه إن كان يصلي في المسجد أو في البيت ، لا يملك معلومات دينية كافية ، لم يكمل تعليمه وغير مثقف . . .

قاطعتها زهرة وقالت :

ـ كفى ، كفى ، وهل تبقى بعد كل ذلك شيء يشفع له كي تقبلي به ؟!

ـ في نظر غيري أجل ، أنه ميسور مادياً .

ـ وهل هذا كاف يا حنين ؟

ـ طبعاً لا ، ولذلك ألمح بالرفض .

ـ تلمّحين بالرفض ؟! ! لا ، يجب أن ترفضي بكل وضوح وحزم .

ـ أنا منزعجة جداً يا زهرة ، لقد تقدم لخطبتي الكثيرون ، وفي كل مرة أرفض ، وبدأت أشعر أن من أحلم به لا يوجد في خيالي فقط .

ضحكت وقالت : لا تقولي هذا ، هو بالطبع موجود إن صدق ظنك في الله ، ارفعي إلى الله مواصفاته كلها وسيرسله لك ، ربما يتأخر ، ولكن بالطبع هذا التأخر في صالحك ، ولكن لا تتنازلي يا حنين مهما واجهتك الضغوط ، ولا تتراجعي عن موقفك أو تنخدعي بالجانب المادي ، صحيح المال نشتري به المسكن والمأكل والملبس ، لكنه لا يشتري السعادة والحب وراحة البال ، المال لا يكفي وحده .

ـ معك حق ، وهذا هو رأيي أيضاً ، ولكن من حولي لا يهمهم ذلك ، كل ما يهمهم أنني تجاوزت الاثنين والعشرين من عمري ولم أتزوج أو أخطب بعد .

ضحكت ساخرة وقالت : على أساس أنك تجاوزت الخمسين ؟! ما هذا التفكير العقيم الذي يسيطر على شريحة عريضة من مجتمعنا هذا ؟ صرنا في القرن الواحد والعشرين وما زال الناس يفكرون هكذا !

ـ أغلب القرى يفكرون هكذا للأسف ، ولأنني أسكن في قرية لا أسلم من تفكيرهم هذا .

ـ وهل يرضيهم أن تتزوج الفتاة لمجرد أن من تقدم إليها ميسور الحال ؟ ولا يهم طريقة التفكير ولا يهم مستوى التدين إن كان سيجعلها تسلم من كلام الناس ، وبعد الزواج تعيش هي وحدها في كرب وقد تخلوا عنها جميعاً ، وتتحمل بطشه وجهله ، هل هذا معقول ؟

ـ عندهم معقول .

انفعلت قائلة : إذاً فليطبّقوا أفكارهم تلك على أنفسهم ولا يجبروا الغير عليها ، لا تنشغلي بهؤلاء ، فوحدك من سيدفع ثمن سوء الاختيار .

قالت موضحة : أنا أصلاً لم أوافق ، ولكن كنت أفضفض لك عما بداخلي .

هدأت وقالت : وهل ما زلتِ منزعجة ؟

ـ لا ، لقد اتفقتِ معي ، فتأكدتُ من صحة موقفي .

قالت بحنو : ثقي يا حنين أن من تتمنينه سيأتيك ، اِمْلي على الله مواصفاته في دعائك وثقي أنه قادر على كل شيء . ومهما طال غيابه عنك كوني في انتظاره ، فأنت تستحقين أفضل من هؤلاء بكثير .

ـ ولكنني أضع شروطاً معقدة يصعب تواجدها في شخص واحد .

ضحكت زهرة بشدة وقالت لها :

ـ تذكرينني بفتاة كانت تقول مثلك تماماً ، والجميع كانوا يسخرون منها ، ولكنها ستفوز في النهاية حتماً .

ـ أشعر كأنك تتحدثين عن نفسك !

ـ شعورك صحيح .

انفعلت كما الأطفال وقالت : تركتني أتحدث كل هذا ولم تخبريني عنك يا زهرة ، هيا قصّي عليّ قصتك حالاً .

ـ لو كنت أدري ما يقال لأخبرتك يا حنين ، كل ما يمكنني قوله لك الآن أن الله أرسل لي من يحمل كل المواصفات التي تمنيتها وأكثر ، ولكن لم يحدث شيء بعد ولم نتفق على موعد .

ـ ما شاء الله ، لكنني أريد معرفة التفاصيل .

ـ خيراً لك ألا تعرفي ، فهي قصة خيالية من الدرجة الأولى .

ـ هذا مشوق جداً ، أعشق القصص الخيالية .

ـ « هناك أمور تحدث في الواقع تكون أحياناً أعجب من الخيال » .

أنهت المكالمة وأمسكت هاتفها وقامت بتشغيل أحد الأناشيد التي تفضلها وأغمضت عينيها في حالة استرخاء ، بعد قليل سمعت

طرقات خفيفة على باب حجرتها وسمعت صوت والدتها تستأذن في الدخول ، فقامت وفتحت لها الباب ثم عادت إلى فراشها ، بينما جلست والدتها على الأريكة ويبدو على وجهها نيتها في فتح حوار ، وبالفعل بدأت تتحدث مع ابنتها :

ـ هل سلمتِ التكليفات التي كنتِ تحملين همَّها ؟

ـ أجل لقد تخلصت منها أخيراً .

ـ لقد قلقت عليك عندما تأخرت في عودتك .

ـ أعتذر يا أمي ، لقد انشغلت في تسليم التكاليف ، ولم أنتبه إلى ضرورة إخبارك بالمحاضرة الإضافية التي فاجأنا بها الدكتور .

ـ ما أخبار ذلك الشاب ؟

شعرت زهرة بحرج بعد سؤال والدتها ، فهي تفهم ما ترمي إليه وقالت :

ـ أظنه بخير .

ـ هل ما زال يتحدث معك ؟

أجابت بحذر : لقد أخبرتك من قبل يا أمي ، نتحدث داخل المجموعة .

ـ هل قال لك متى سيأتي ؟

ـ لا .

ـ حسناً .

وبعد صمت قالت :

بالمناسبة ، لقد حدثت والدك عنه .

وقعت تلك العبارة كما الصاعقة على قلب زهرة ، واحتقن وجهها بالدماء ، وندمت في تلك اللحظة أنها تحدثت عنه معها ، وقالت بلوم وقد أوشكت العبرات أن تتولد في عينيها :

ـ لماذا يا أمي فعلتِ هذا ؟

ردت بحزم : لأنني لم أعتد أن أخفي على والدك شيئاً .

نظرت لوالدتها نظرة عتاب وهي تقاوم العبرات وقالت :

ـ وهل ضميرك مرتاح الآن يا أمي ، طبعاً سمعتِ من أبي ما يكفي لتندمي على هذه الخطوة ، بل ربما سحب مني الحاسوب أيضاً .

وللعجيب أن والدتها كانت تسمعها بكل هدوء ، هذا الهدوء الذي لم تعتده زهرة منها ، وما أن انتهت حتى قالت والدتها :

ـ لا تقلقي ، لن يفعل ذلك .

بدأ الشعور بالأمان يتسلل إلى قلبها فيجفف منبع تلك العبرات

قبل تولدها ، فتشجعت وقالت :

ـ إذاً ، ماذا قال لك ؟

ـ في الحقيقة موقف والدك غريب جداً ، أنا نفسي لا أصدقه حتى الآن .

نظرت لها بفضول شابه القلق وقالت بكل حرص وترقب :

ـ وما هو ؟

ـ لقد جلست معه وبدأت أقص عليه القصة بكل هدوء ، وكان يصغي إلي ولم يتفوه ببنت شفة ، وجهه كان هادئاً تماماً ، وما أن انتهيت من قصتك العجيبة تلك حتى قال ما لم أتوقعه أبداً .

بدأت تضطرب دقات قلب الفتاة ويسيطر القلق على أعصابها كلها ، بل تكاد تنعزل عن العالم المحيط في ترقبها جواب والدتها على سؤالها الذي قالته بصوت شبه مهموس :

ـ ماذا قال يا أمي ؟!

هنيهة واحدة استطاعت زهرة فيها أن تضع مئات الإجابات نصب عينيها ، تنتظر أن تكون إجابة والدتها إحداهن ، لكن المفاجأة أن تلاشت كل تلك الإجابات بعدما خلا رد الأم من إحداهن .

ـ قال بأنه يشعر بارتياح غريب إلى ذلك الموضوع ، ويشعر بصدق ذلك الشاب ، وخاصة بعدما أخبره صاحب الورشة التي في

أول الشارع أن أحدهم سأله عنك .

كانت تلك المفاجأة كافية ليصاب تفكيرها بشلل تام ، ولا تجد وصفاً لحالتها التي صارت تلازمها ، بل طالت أيضاً والدها هذه المرة .

ما هذا الذي يجري معي ؟

« إنها إرادة الله التي لا يحكمها قانون بشري ، ولا يستطيع ذلك العقل الصغير جداً أن يستوعبها » .

* * *

وهناك ، على بعد بضع مترات من تلك الجزيرة ، يجلس الحاج صابر في بيت ابنته التي بدأت تحدثه عن رغبة أخيها ريان في الخطبة ، وقبل أن تخوض في أية تفاصيل جاءها الرد الذي كانت تعلمه جيداً من قبل :

ـ لا ، هذا ليس وقتاً مناسباً يا بنتي كي يخطب .

اختفى الكلام على لسان حنان ، ولم تجد سوى تلك الجملة فقالتها :

ـ هو معجب بها يا أبي .

فحرك رأسه يميناً ويساراً معترضاً ، وألقى كلمته الأخيرة التي غادر البيت بعدها بقليل :

ـ من خلقها خلق غيرها ، هذا ليس وقتاً مناسباً ليفكر في هذا الأمر ، ما زال في مقتبل حياته ، لمَ يورط نفسه في خطبة هو أصلاً لا يملك مقوماتها المادية ؟

غادر الأب فاتصلت بأخيها وقصت عليه ما حدث ، وبعد المكالمة جلس على فراشه محاولاً السيطرة على هذا الحزن الذي جثم على قلبه ، ولم يجد مخرجاً يتقوى به على حالته تلك إلا أن يسمع صوتها ، فأمسك هاتفه واتصل برقمها وكان يكفيه سماع صوتها حينما قالت :

ـ السلام عليكم .

ثم أغلق الخط وأغمض عينيه ليستحضر صورتها ويرفقها بصوتها الذي سلب آخر ما تبقى بقلبه من قوة وتحمل ، كان في حاجة ماسة لكي يسمع صوت حبيبته ولو لمرة واحدة ، لذلك استطاع الحصول على رقم هاتفها بطريقته الخاصة واحتفظ به ، واستطاع أخذ القرار عندما شعر باحتياج شديد لجرعة من الحب تجدد حيويته بعد تلك الفترة الرتيبة ، ومن يمكنه منحه تلك الشحنة سوى حبيبته التي ربضت في قلبه وتوطدت في نبضه ؟! .

* * *

دقت عقارب الساعة وجاء موعد اللقاء ، فاستأذن وتحجج

ببعض العمل ، وسار نحو المكان الذي سيقابلها فيه ، هو لا يدري أهو يمشي أم يطير ؟ وهل يسير بقدميه أم بقلبه ؟ يهرول منفرداً رغم تزاحم الناس من حوله إلا أنه لا يراهم ولا يشعر بهم ، يسير نحو هدفه واللهفة قد وصلت إليها قبله ، وما إن وصل هناك حتى لحقت به هي الأخرى ، الشارع ممتلئ بالمارة ، لكنهما كانا في عالم آخر ، وكأن أحداً لم يرهما أو يسمعهما أو يشعر بهما ، أقبل نحوها وأقبلت نحوه بحياء شديد ، عرفها وعرفته ، ابتسم لها وابتسمت له ، وما إن وقفت أمامه قالت بنبرتها نفسها التي تشرّبها كيانه كله : « السلام عليكم » ، فنظر إليها ودون أن ينطق بكلمة سمع نبض قلبه يرد السلام ، نظر في عينيها التي أشبه ما تكون بسطح نهر رائق واختلط بها لون حجابها الأزرق ، سقط فيهما سهواً دون سابق إنذار وأخذ يبحر فيهما كسباح ماهر .

« رفقاً بي يا حبيبتي ، كيف لقلبي الصغير أن يتحمل كل هذا ؟! » .

* * *

جلس في الحافلة المتجهة نحو المدينة التي يعمل بها ، وظل ينظر خلال النافذة ينتظر مرورها عند منطقة معينة ، وما أن وصلت عندها رمى ببصره إلى هناك ، حيث ذلك المبنى الذي تسكنه

حبيبته ، فتسارعت دقات قلبه وظل يطيل النظر حتى غاب عنه ذلك المبنى ، أسند رأسه على المقعد وتذكر لقاءه بها ، وظل منغمساً في تذكُّر تفاصيل هذا اللقاء حتى وصلت الحافلة إلى وجهتها ، فترجل منها وسار بضعة أمتار ، حيث المكتب الهندسي الذي يعمل فيه ، وفي الطريق لمح المكان الذي تم فيه اللقاء فابتسم وتنهد وتمتم :

« سيتجدد اللقاء حتماً يا حبيبتي ، أعدك بذلك ، وحينها لن أخشى لوم أحد » .

وما إن صعد إلى المكتب حتى وجده صديقه يرحب به قائلاً :

ـ جئت مبكراً اليوم ، هذه ليست عادتك يا صديقي .

جلس ريان على كرسيه الخاص المجاور لمكتب باسم وقال :

ـ استيقظت مبكراً بعد ليلة سهاد طويلة .

التقط باسم منه هذه الكلمة وكأنه وجد الطعم الذي سيصطاد به ما في جعبة صديقه وقال :

ـ ليلة سهاد طويلة ، إنه الحب يا صديقي ، اسألني أنا عن ليالي السهاد ، وما أدراك ما ليل السهاد . . . وتظاهر بحالة رومانسية يتمايل برأسه .

ـ وحمدي وسعاد ، أنجبت له الأولاد ، فتركها وسافر وما عاد ، هيا أكمل قصيدتك يا عنترة بن شداد .

ضحك باسم وضرب كفاً بكف وقال :

ـ يبدو أنك تحت تأثير جرعة من الممنوعات يا صديقي .

تنهد قائلاً : وأية ممنوعات ! ولكن لن تكون ممنوعة عني .

ـ يا سلام يا سلام ! إنه العاشق الولهان ، يسبح في عرض الأحلام ، وإذا حل الليل لا ينام .

ضرب ريان كتف صديقه وصرفه بعيداً عنه قائلاً :

ـ الخطأ خطئي أصلاً أنني أتحدث معك .

فعاد إليه ضاحكاً وقال :

ـ وهل أهون عليك ؟ لم أحصل منك على جملة مفيدة بخصوص قصة الحب التي تعيشها .

ـ وماذا تريد مني الآن ؟

ـ أجب عن سؤالي وسأسرّحك لوجه الله .

ظفر مستسلماً وقال :

ـ تفضل يا لحوح .

جلس على كرسيه وقربه من ريان ثم قال :

ـ من هي ؟ ومتى وكيف عرفتها ؟ وأين تدرس ، أو ما شهادتها ؟

أبعده ريان عنه وقال ساخراً :

ـ وبالمرة أعطيك عنوانها ورقم هاتفها ، ما رأيك ؟

ضحك باسم وقال :

ـ لا لا ، أنا لا أهتم بتلك التفاهات ، أهتم بالمفيد ، هيا أخبرني . . . وقرب أذنيه من ريان .

هام قائلاً وكأنه استدعاها أمامه :

ـ هي فتاة بها المواصفات التي تمنيتها ، عرفتها عندما وُضعت في طريقي ، تخرجتْ في كلية التربية وتستكمل دراستها فيها .

ضرب باسم ظهر يمناه ببطن يسراه وقال :

ـ وطبعاً هنا تكمن المشكلة ، أنها ليست طبيبة أو مهندسة ، أليس كذلك ؟

نظر له باستنكار : وما المشكلة في ذلك ؟!

ـ ربما تم رفضها لأنها ليست في مستوى شهادتك نفسه .

بدا الانفعال على وجهه وقال منزعجاً :

ـ لا طبعاً ، أنا لا أفكر بهذه الطريقة ، ولن أقتنع بها إن طُرحت علي ، ثم ما المشكلة في شهادتها ؟ أليست شهادة جامعية ؟ ثم إنني أنا الرجل ومن بيده القوامة ، ولن تختلف قوامتي بشهادتها ،

ولا يهمني من أي كلية تخرجت ، بل لا يمكنني أن أضحّي بجميع الخصال المحمودة فيها لمجرد أنها ليست مهندسة أو طبيبة .

توتّر بسبب انفعال ريان فقال ملطفاً :

ـ اهدأ يا صديقي ، أنا لا أتكلم عن موقفك منها ، لكن أغلب الناس يفكرون هكذا .

ـ لا يهمني تفكير الناس ، ولا يهمني موقفهم منها ، المهم رأيي أنا الذي يعارض تلك الفكرة تماماً ، هل يحرم على المهندسين والأطباء أن يتزوجوا من غيرهم ؟ في شرع مَن هذا ؟ الشرع لم يشترط الشهادات التي يحملها الكثيرون وليسوا أهلاً لها ، بل يشترط التكافؤ الفكري والاجتماعي والتدين قبل هذا كله ، وإذا تواجد ذلك في أي فتاة من الظلم أن ترفض لمجرد أنها ليست طبيبة أو مهندسة ، ثم أنا لا أريد زوجتي أن تكون طبيبة في أي لحظة من ليل أو نهار تترك البيت بسبب حالة طارئة ، مع احترامي للطبيبات جميعهن لكن هذا لن تتحمله نفسي ، ولا أريدها مهندسة تقف في المواقع وتختلط بالرجال ، أنا أغار جداً يا باسم ، هل تفهمني ؟

ندم باسم أنه صرح بذلك الفرض الذي جعل صاحبه ينفعل هكذا ، فحاول تهدئته قائلاً :

ـ طبعاً أفهمك ، ورأيك يشبه رأيي تماماً .

ثم عقب بسؤال آخر وقال :

ـ هل تحدثت مع والدك عنها ؟

أومأ برأسه أن لا ، وهو يقول :

ـ ولكن تحدثت مع حنان ، والتي بدورها فاتحت أبي فرفض لأنني ما زلت في مقتبل العمر ، ولا أملك المؤهلات المادية .

ـ وما المشكلة ؟ فعلتها قبلك وأنا أصغر منك ، ثم أنت قلت لي من قبل أنك منذ فترة وأنت تجمع مبلغاً من المال مناسباً لتشتري سكناً هنا ؟

ـ أنت في نظرهم شاذ عن القاعدة. . . (ومط شفتيه وابتسم ساخراً) . . . وبالفعل أدخرُ مبلغاً لا بأس به ولكنه لن يغطي المطلوب مني .

تجاهل تعقيبه الأول ، فليست المرة الأولى التي يسمع مثله ، لقد عانى هو أيضاً بسبب رغبته المبكرة في الزواج ، ورد على الشطر الثاني قائلاً :

ـ وعلى ماذا تنوي ؟

ـ أنا أدرس جميع الجوانب وأوشكت أن أصل إلى حلول مناسبة .

* * *

انتهى الشهر ، وبدأت اختبارات نصف العام ، فشهدت كتبها ومذكراتها على مشاعرها النبيلة ، وتحولت من مجرد كتب علمية إلى بساتين من الورود والقلوب التي يزينها حروف اسمه ، وكلمات الشعر التي قد انصاعت هي الأخرى وتذللت لها لتبحر في ألوان الشعر وتغوص إلى الأعماق لتجلب أصدق الكلمات التي يمكنها أن تعكس مشاعرها تجاه حبيبها الأول والأخير ، من يمكنه وحده أن يرويها لتتفتح وتزهر من جديد .

وحُبِّـي كـالهـواءِ يَجـولُ بِـدَقَّـاتـي وَشِـرْيـانـي
لِيَـرويَ تُـربَـةَ القَلـبِ بِـدِفءٍ كـادَ يَنْسـانـي
فَيَنبـتُ دِفـؤُهُ عِشْقـاً تَخَلَّـلَ كـلَّ وجْـدانـي
أنـا أَهْـواهُ يـا زَمَـنُ ولا لِسِـواهُ أَبْغـانـي

في آخر يوم في الامتحانات ، وبعد تفكير قررت أن تتخذ تلك الخطوة ، فتوجهت نحو محل بعينه ، ووقفت أمام تلك الخواتم تتأملها لترى أيها يناسبها وكأنها كانت تنظر بعينيه هو لتختار ، ثم اشترت خاتماً يشبه خاتم الزواج ولبسته ، فشعرت به ينظر إليها مبتسماً وراضياً عن قرارها هذا ، عادت إلى البيت وهي تحتضن الخاتم من وقت لآخر ، لاحظت والدتها ذلك فقالت :

ـ لماذا تضعين هذا الخاتم يا بنتي ؟ من يراه سيظنك قد تمت خطبتك .

ـ وما المشكلة ؟

ـ هل ستمتنعين من الخُطّاب ؟

ـ أجل أنا أفعل .

ثم تركت والدتها ودخلت حجرتها وجلست على فراشها تتأمل خاتمها المزيف وظلت تحدث بنصر يمناها :

ـ لا تنزعج أيها الأصبع ، صحيح كنت أتمنى لو كان خاتماً من الذهب ، وأن يكون ريان هو من يلبسني إياه ويشاركني في الاختيار ، ولكن يمكنك أن تتصبر بهذا مؤقتاً ريثما يحدث الله أمراً ، واطمئن لن أسمح لسواه أن يلبسك خاتمه الذهبي أبداً .

* * *

وها هو قد بدأ الفصل الدراسي الثاني وهي تحاول ألا تعد الأيام التي صارت تمر بها ببطء شديد ، وعادت إلى الجامعة . وفي يوم كانت تسير مع صديقتها هبة إلى أن أوصلتها إلى منزلها ، وظلت تبحث بعينيها على اسم المكتب الهندسي الذي يعمل به ريان وكأنها تبحث عنه هو ، فما إن وقعت عليه عيناها حتى قالت فجأة وهي تشير بسبابتها :

ـ ها هو يا هبة ، مكتب ريان .

نظرت هبة حيث أشارت وقالت مندهشة :

ـ هل أنت متأكدة ؟

أومأت برأسها بثقة :

أجل ، هو قال لي هذا الاسم في حديثه معي .

ـ غريبة ، أصلاً كنت سأذهب إلى المحل الموجود أسفله لأسأل عن شيء طلبته ، ومن المفترض أن يحضروه اليوم .

التفتت إليها زهرة التفاتة طفولية وأمسكتها من معصمها وكأنها تتمنى بعينيها أمنية ما ، وقالت :

ـ حقاً !

شعرت بأنها قريبة جداً من ريان وتسارعت دقات قلبها وحدثت نفسها وهي تنظر إلى المبنى :

« معقول ! ريان لا يفصلني عنه سوى بضع مترات ، ماذا لو خرج الآن من المبنى ورأيته ؟ معقول ! » .

ـ ما رأيك أن تأتي معي عند صاحبة المحل وأنا أسألها عما كنت طلبت منها إحضاره ؟

بدون تفكير ومن غير تردد قالت في أقل من الثانية :

ـ موافقة .

عبرت الطريق برفقة هبة وقلبها يناديه علّه يسمعه فيخرج ويجيبه ، وكلما اقتربت من المبنى تتسارع دقات قلبها ، حتى وصلت أسفل المكتب مباشرة ، رفعت بصرها لتقرأ اللافتة المدون عليها الاسم فتلاقت عينها بعينه التي تبتسم لها في دهشة وقد عرفتها .

وتوقف بهما الزمان وخلا المكان من سواهما :

ـ أجل إنه هو ، لقد حفرتُ صورته على جدران روحي ، تمنيت لو صرخت قائلة ها هو حبيبي ، ها أنا أراه أخيراً ويراني ، ليتني أستطيع فعل ذلك ، ولكن كيف ؟ كيف أصرح لك بحبي وليس هناك أي رابط بيننا ؟!

ـ أجل هذه هي ، أنا متأكد هذه المرة أنني مستيقظ وليس مجرد حلم ، حبيبتي التي حفر اسمها وصورتها أركان قلبي ، حبيبتي التي لن أتنازل عنها أبداً ، يا ليتني أصرخ بأعلى صوت وأخبر العالم كله أنني أحببتك من دون جميع النساء ، ولكن ! كيف أفعل وما زال هناك خطوات تفصلني عنك يا حبيبتي ؟

نظرة واحدة لم تستغرق ثانيتين كانت كافية لتعزلهما عن العالم الذي سرعان ما ردهما إليه خروج هبة من المحل ، بعدما أخبرتها

العاملة أن طلبها لما يصل بعد ، فنظرت إليها زهرة وقد سلب انتباهها هذا الذي بالأعلى ، تمنت لو طال مكوثها في الداخل ، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، فصرفت بصرها نحو الطريق إلا أن قلبها ظل متعلقاً بتلك النافذة ، سرقت نظرة أخرى إلى النافذة نفسها فوجدت شاباً آخر هو من يقف فيها ، وينظر إليها يراقبها .

ـ معقول كنت أتوهم ؟!

خطوة فاصلة

مرت الأيام وريان يلمّح لوالدته من حين لآخر برغبته في الارتباط ، تلك المرأة طيبة القلب ، سمحة النفس ، لطيفة العشرة ؛ فهو يعلم جيداً أن حناناً حدثتها بالأمر ، ويعلم أيضاً أنها ستكرر كلامه لوالده ، وأصبح أمر خطبته يتردد بين الجميع عن طريق حنان ، فقرر أن يصرح بطلبه إلى والدته هذه المرة .

عاد من عمله فتناول الغداء ثم جلس بجوار والدته وأسند رأسه على ذراعها وبدأ يمازحها ليضمن أن تنصت إلى حديثه ، ثم دخل في الموضوع وقال :

ـ أمي ، أريد أن أخطب .

نظرت له والدته وتعجبت من كلامه ، فقالت بتوجس :

ـ هل أنت جادّ يا بني ؟!

اعتدل في جلسته ثم نظر إلى عينيها بإصرار :

ـ أجل يا أمي ، أنا جاد جداً .

ـ ظننتك كنت تمزح كل تلك الفترة .

ـ لا لم أكن مازحاً يا أمي ، تلك رغبتي فعلاً .

ابتسمت بمكر وقالت :

ـ ومن هذه التي استطاعت أن تسيطر عليك هكذا ؟

أسند رأسه على الحائط وتنهد قائلاً :

ـ آه لو رأيتها يا أمي ، ستحبينها فوراً .

ـ يا سلام ! ورأيتَها أيضاً ؟

رد بثقة ممزوجة بزهو :

ـ طبعاً رأيتها ، وهل كنت سأتقدم لواحدة لا أعلم شكلها ؟

ـ يبدو أن الأمر يشغلك منذ زمن ونحن لا ندري .

رد بحرج : كنت أنتظر الوقت المناسب يا أمي لأفاتحكم بنفسي .

قالت بحنو : يا بني ، ينبغي التأنّي في مثل هذه الأمور .

ـ لقد تأنيت بما يكفي يا أمي وجاء الوقت كي آخذ خطوة في صالحي .

ـ ألهذه الدرجة أنت مقتنع بها ؟

ـ أجل .

ـ ومتى وكيف تعرفت عليها ؟

أوجز ريان في قصة تعرفه على زهرة ، وكيف جمع البيانات اللازمة عنها ، وأمه تصغي إليه حتى انتهى من كلامه .

ـ هذه القصة يا أمي .

ـ ولكن يا بني ، هل فكرت في الضغوط التي ستتحملها إذا تقدمت إليها ؟

قال بانتشاء : أجل لقد فكرت ووضعت خطة لا بأس بها ، وسأعرضها على أبي حينما أحدثه .

ـ أنا أتمنى لك الخير يا بني ، ولكن رأيي أن تتمهل قليلاً ولا داعي الآن أن تخوض في هذا الموضوع .

نظر إليها متوسلاً : يا أمي ، الفتاة رائعة ، ولا أريد أن يسبقني أحدهم ويخطبها .

ـ إن حدث ذلك فسيكون هذا النصيب ، ولا يأخذ أحد سوى نصيبه يا بني .

ـ علي أن آخذ بالأسباب أولاً يا أمي .

ـ ستتحمل ضغوطاً كثيرة يا بني .

ـ ليس عندي مشكلة ، أنا أطلب الحلال يا أمي لذلك سيكرمني الله .

قالت باستسلام : ونعم بالله ، على العموم ، انتظر قليلاً ريثما أستطلع رأي والدك .

قبّل كفّ والدته ونظر إلى عينيها مرتجياً إياها وقال :

ـ حاولي إقناعه يا أمي رجاء .

تنهدت الأم بعدما قرأت في عيني ابنها هذا الإصرار وقالت :

ـ يقدم الله ما فيه خير .

* * *

وصل إلى عمله وكعادته قبل أن يندمج في العمل يفتح صفحة المجموعة فينشر منشوراً صباحياً وينتظر من زهرة التعليق عليه فيجعل ليومه مذاقاً خاصاً ، وبينما هو كذلك وجد كف باسم تبطش بكتفه اليسرى ويقول :

ـ ها قد تم ضبطك متلبساً يا صديقي وكشف أمرك .

فزع من فعلة باسم تلك ووضع يده على قلبه قائلاً :

ـ حرامٌ عليك يا أخي ، لقد أفزعتني ، متى جئت ؟!

سحب باسم كرسيه وجلس بجوار صديقه وهو ينظر إلى الصفحة التي كان ينظر إليها منذ قليل وقال :

ـ اعترف يا صديقي حالاً ، لقد كشف أمرك ولم يعد لديك مجال للمراوغة .

نظر إليه متعجباً وقال :

ـ أعترف بماذا ؟!

ـ منذ فترة وأنا أراقب نشاطك داخل المجموعة ، ولاحظت انسجامك مع إحداهن ، فراهنت أنها حبيبة القلب ، وها أنت ذا يا صديقي أثبتّ لي هذا .

وأشار بسبابته إلى اسم الصفحة الشخصية التي فتحها ريان منذ قليل وقال :

ـ زهرة الياسمين .

انتبه إلى حاسوبه فشعر بحرج شديد ، لقد كشف أمره .

ـ زهرة الياسمين ، خريجة كلية التربية ، ومرتبطة ! لكن صورتها الشخصية لطفلة صغيرة ، هل تحب طفلة يا صديقي ؟

خرج سريعاً من الصفحة فعاد إلى المجموعة وأزاح سبابة باسم عن الشاشة وقال :

ـ أجل هي ، هل أنت مرتاح الآن ؟

تمطع وهو يقول : طبعاً طبعاً يا صديقي ، ويكفي أنني تأكدت أن تخميني لم يخطئ في العنوان .

ـ إذاً انصرف عني الآن ، فلدي عمل يجب أن أنهيه قبل حضور المدير .

ـ لديك عمل ؟! وما هو ؟ هل ستصمم سوراً لمدينة الأحلام تلك يا صديقي ؟

نظر ريان إلى شاشته وقرأ اسم مجموعة ماجدة التي أمامه :

ـ « مدينة الأحلام » ، هي كذلك فعلاً .

* * *

استيقظت مبكراً كعادتها وبعد أن انتهت من تجهيزاتها سلمت على والدتها وتوجهت نحو الحضانة التي تعمل بها وهي في حالة انتشاء بعدما قرأت منشور ريان ، والذي لمح لها فيه بأن اللقاء قد اقترب ، وقررت أن تتحدث مع معلمتها وتقصّ عليها القصة ، وكأن المعلمة قد اطلعت على نيتها فجاءت إليها في الفصل حينما توجه الأطفال إلى حجرة الألعاب وقالت لها :

ـ أرى وجهك مبتهجاً اليوم .

نظرت لها زهرة بخجل وقد توردت وجنتاها وقالت :

ـ فعلاً أنا مسرورة اليوم .

نظرت إليها المعلمة التي ترتدي حجابها الشرعي الواسع الفضفاض وقد رفعت عنها نقابها فتدلى خلفها وأعطاها طلة تشبه طلة العروس وقالت :

ـ وهل ستخبرينني هذه المرة أم ماذا ؟

أجابتها وهي ما زالت على خجلها :

ـ بل سأخبرك .

وقصّت عليها القصة وكانت تسترق النظر إلى عينيها فتقرأ الدهشة ، وبعد أن انتهت قالت لها :

ـ وهذه قصتي يا معلمتي .

وكان ردّ المعلمة لا يختلف عن كل الردود التي تلقتها ممن كانوا قبلها ، ولكن هناك تعقيب مختلف تفاجأت به :

ـ طبعاً ما قصصته الآن يصعب تصديقه ، ولولا ثقتي فيك لظننتك تؤلفين هذه القصة ، لكن هلا انتبهت لشيء ؟

ضيقت ما بين حاجبيها قائلة : ما هو ؟

ـ كيف تتحدثين مع رجل أجنبي عنك ؟

تجهم وجهها وهي تقول : لم أفهم قصدك .

ـ يا عزيزتي ، حواراتك معه أو مع غيره داخل المجموعة ومسامرتك له لا تجوز .

جفلت من كلامها وشعرت بارتباك :

ـ هذه مجرد كتابة يا معلمة .

ـ لا يا زهرة ، الكتابة مثلها مثل الكلام ، وإن تحدثتما في غياب الباقين كانت خلوة ، وإن تمازحتما فهذا منك خضوع في القول .

ردت مصدومة : ماذا ؟! ! خلوة !! وخضوع !!

ـ أجل ، انتبهي .

ـ ولكن حديثه معي مهذب جداً يا معلمة .

ـ أنا أعلم أنك متدينة ، ومن وصفك له يبدو مثلك ، ولكن يا عزيزتي هذا لا يعصمكما من الخطأ ، الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .

ردت بضعف : ظننت أن حديثي معه عبر الإنترنت لا يعد خلوة كما تقولين ؛ فهو لا يراني وأنا لا أراه ، وكذلك لم أصرح له بمشاعري تجاهه ، ولا يسمع صوتي وأنا أكتب ليكون خضوعاً .

اعترضت برأسها وقالت : لا يا عزيزتي . . خلوة ، أليس بإمكانه أن يكتب شيئاً لا يراه غيرك ؟

ـ بلى .

ـ إذاً هذه خلوة ، ويمكنك البحث عن الحكم الشرعي لتتأكدي من كلامي .

قالت بصوت مهموس : سأفعل . . . وطأطأت رأسها .

اقتربت منها المعلمة وقالت : زهرة ، أنا أعلم أنك طيبة القلب ، ولكن انتبهي ، طيبتك يجب أن تكون في المكان المناسب ، وإلا تحولت إلى ذنب ، نحن في فترة غاب عنا الكثير من الأحكام الشرعية لجهلنا ، وأحياناً نكون على علم بها ولكننا نتجاهلها لأنها لا تتفق مع رغباتنا ، ونظن أن المعصية إن انتشرت تصبح حلالاً ، فنجد تلك المخالفات التي تحدث في شتى مناحي الحياة .

قالت بضعف : معك حق ، وكأن الله ساقك إلي لأسمع منك هذه الكلمات .

ـ أرجو أن تكوني مقتنعة بها .

ـ أنا بالفعل مقتنعة بها .

ـ أحياناً يحجب الله عنا شيئاً نتمناه بسبب معصية بعينها ، ولكي نحصل عليه يجب أن نترك تلك المعصية .

* * *

عادت من عملها وكلمات المعلمة تتردد في ذهنها ، كيف غفلت عن هذه النقطة ؟ وبعدما وصلت إلى البيت بدلت ثيابها وجلست أمام نافذتها تنظر إلى السماء تناجي الله :

ـ يا إلهي ، كيف لم أنتبه إلى ما قالته لي المعلمة ؟ وهل حقاً لم أنتبه أم أنني كنت أشعر في داخلي بأن هناك خطأ ما ؟ أجل أعترف كنت أخمد إحساسي بالذنب كلما حاول أن ينشط داخلي ، وكنت أجد مبررات أقنع بها نفسي ، ولكن لن أفعل هذا مجدداً ، ولربما طال انتظاري بسبب هذا الذنب ، لذلك أتوب إليك منه يا الله ، فاغفر لي وعجل لي بالفرج ، يا الله اسمح لقلبي أن يفوز بحبه فأنا لا أريد أن أعصيك بنعمتك علي .

وظلت تناجي الله وتدعوه وهي تبكي بمفردها في عالمها القابع في حجرتها ، لا يعلم بها أحد ولا يسمع نحيبها سوى خالقها ، وكفى .

* * *

وجاءت اللحظة الحاسمة التي سيصارح فيها والده ، انتهى من طعامه وقرر أن يرافق والده إلى محل عمله ، لقد رتب جميع أفكاره ، ووجد كل الحلول لتلك العقبات التي حتماً سيعرضها عليه والده ، وبدأت الجولة :

ـ أبي أريد أن أتحدث معك قليلاً .

نظر له والده وهو يثق فيما سيقوله له ابنه ، لقد ظنه قد عدل عن فكرته أو ربما سيفعل مع الوقت ، ولكن ها هو يفاجئه ويفتح معه الموضوع .

ـ خيراً يا بني .

ـ طبعاً حنان مهدت لي وفاتحتك في الموضوع .

أومأ برأسه وهو ينظر إلى قطعة القماش التي أمامه وقال :

ـ أجل ، وسبق وأبلغتها رأيي فيه .

ـ لكن من الأفضل أن تسمع مني يا أبي .

ظل الحاج صابر على هيئته وقال :

ـ تفضل .

ـ يا أبي ، أنا لم أفاتحك الآن إلا بعدما فكرت طويلاً ، ووجدت حلولاً مناسبه لتلك العقبات التي ستقابلني .

ترك الحاج صابر القماش من يده ونزع نظارته بهدوء ونظر لابنه معاتباً :

ـ ولماذا تتعجل يا بني ؟ انتظر كي تكوّن نفسك أولاً ثم اخطب من تشاء .

ـ أخشى أن يسبقني أحد إليها ، صدقني يا أبي ، لقد خضعت تلك الفتاة إلى بحث عميق وتأكدتُ أنها مناسبة لي .

قال مُعَاجِزاً : وكيف ستدبر أمرك ؟

فتح هذا السؤال باب الأمل أمام ريان ، فظل يشرح لوالده خطته التي سيسير عليها ، وبدأ يقرأ في وجه أبيه بشائر تقبُّل الموضوع .

ـ بالمناسبة يا أبي ، جدها فلان جارنا .

كانت تلك المعلومة مرضية له ؛ فقد وجد من يمكن أن يسأله بنفسه عن تلك الفتاة التي سلبت قلب ابنه ولم يعد يفكر في سواها .

وبالفعل سأل عن زهرة ، فلم يسمع إلا ما يرضيه ، فشعر بارتياح لها ، فاقترح على ابنته حنان أن تقابلها وترجع برأيها فيها ، وسيكون رأيها هذا هو الفيصل في ذلك الموضوع .

* * *

« كيف ستكون تلك المقابلة ؟ ترى هل ستكون لصالحي أم ستجد حنان فيّ عيباً ما يجعلهم يصرفون عني النظر ؟ »

تلك الأفكار كانت كافية ليجافيها النوم ليلة اللقاء ، وكانت كلما مر الوقت راحت صريعة القلق والخوف ، فتدعو الله أن يوفقها ويستر عن حنان عيوبها .

وجاء الصباح فارتدت ملابسها وتممت على حجابها ، ووقفت

أمام المرآة تنظر إلى انعكاس صورتها وتقول بصوت متوتر :

- ترى كيف سيكون اللقاء ؟ وماذا ستأخذ أخته عني من انطباعات ؟ يجب أن أكون حذرة في تحركاتي وسكناتي فهي من ستنقل لهم صورتي التي ستحدد مصيري. . . لا ، لن أتجمل ولن أتظاهر بما ليس من صفاتي ، يجب أن أكون على طبيعتي ، يجب أن يكون انطباعها عني يعكس حقيقة شخصيتي. . . أجل لن أكون إلا أنا .

وغادرت المنزل متجهة إلى الجامعة ، ولكن قبل ذلك سيكون لقاءها بحنان بالقرب من جامعتها .

* * *

في مكان اللقاء وقف وبجواره أخته ، نظرت إلى ساعتها وقالت :

- من البداية تأخرت ، هذا ليس مبشراً .

نظر لها ساخراً وقال :

- على أساس أنك جئت في موعدك معي ، أنت أيضاً تأخرت يا أختي العزيزة. . . ورفع ذراعيه أمام صدره .

نظرت له بمكر مازحة وقالت :

- لكن في النهاية وصلتُ قبلها .

أومأ برأسه وقال :

ـ وها هي قد وصلت .

نظرت بعيداً وأخذت تتفحص وجوه المقبلات في اتجاهها وقالت :

ـ إن لم أكن مخطئة ، إنها تلك الفتاة التي ترتدي خماراً رمادياً هناك ، أليس كذلك ؟

التفتَ بوجهه ونظر إليها متعجباً وقال :

ـ صحيح ! ولكن كيف عرفتِها ؟! هناك أكثر من فتاة غيرها تتقدم نحونا .

أشارت له حنان نحو صدرها بسبابتها وقالت :

ـ لقد تعرّف قلبي عليها .

اقتربت منهما في خجل شديد وألقت التحية ، فاحتضنتها حنان وهي تسلم عليها ، وعندما التفتت إلى ريان الذي كان وجهه يفضح حالته شعرت بحرج شديد وقالت :

ـ مرحباً مهندس ريان .

لولا أنه يملك قدراً من القوة لتفلتت من على لسانه تلك الكلمة :

ـ مرحباً بك يا حبيبتي .

ولكنه يعرف جيداً أنه لم يأن الأوان بعد ، فاكتفى بالرد الرسمي ، بابتسامته المتلألئة :

ـ مرحباً بك زهرة .

بعد التعارف استأذن ريان لتجلسا بمفردهما ، فتابعته زهرة بنظرها لثوانٍ وكأنها تحتفظ به داخل عينيها ، فقطعت عليها حنان ذلك وقالت :

ـ أتعلمين يا زهرة ! ريان ليس فقط أخي الصغير ، ريان ابني وحبيبي .

ـ وهو أيضاً ليس مجرد شاب أعجبتُ به ، بل هو ضالَّة فؤادي .

لا لم تقل زهرة هذا لحنان بل قالته لنفسها تعقيباً على جملة حنان ، واكتفت بابتسامة ردّت بها على محدثتها .

ـ أليست قصتكم غريبة !

ـ بلى ، والأغرب هو أنت !

نظرت إليها وقد عقدت حاجبيها تعجباً وقالت : كيف ؟!

ـ لقد رأيتك في منامي ، رأيتك على هيئتك نفسها تلك ، تباركين لي الخطبة .

نظرت إليها بذهول وقالت : حقاً !!

ظلت حنان تتحدث معها وتسألها عن مواضيع مختلفة فتجيبها بكل وضوح وصراحة ، وما شجعها على ذلك تلك البساطة التي وجدت حناناً تتحدث بها ، لقد ارتاحت لها جداً بل وأحبتها أيضاً ربما لبساطتها وعدم تكلفها ، فرغم أنها أستاذة جامعية إلا أنها تحدثها كأنها صديقتها ومن سنها نفسه ، وربما أحبتها لكونها أخت ريان ، أو ربما الإثنان معاً .

* * *

ـ لا ، لم تكن كما ظننتِ يا أمي .

ـ كيف ؟

ـ لقد شعرتُ بأنني أعرفها منذ زمن ، تحدثت معي بكل ود ، لم أشعر بتكلفها ، بل كانت بسيطة جداً .

ـ وفيمَ دار حديثها معكِ ؟

ـ عن أمور مختلفة ، كيف تعرفتُ على أخيها ؟ وكيف وثقتُ به ؟ وما هي أهدافي من دراستي ؟ وحدثتني عن نفسها أيضاً .

ابتسمت أم زهرة ابتسامة رضا وقالت :

ـ فليقدم الله ما فيه خير .

ثم تركت ابنتها وخرجت من الحجرة ، فأغلقت الباب خلف أمها ثم جلست على فراشها وهي تنظر إلى ذلك الجزء من السماء الذي

كشفت عنه نافذتها ، وظلت تستعيد ذلك اللقاء الذي حدث معها منذ سويعات ، فانتبهت لشيء تحدث به لسانها قائلاً :

« سبحان الله ! هي نفسها التي رأيتها في منامي ، صحيح أنني لم أدقق في ملامحها في الحلم إلا أن هيئتها هي نفسها ، ولأنها أول من سألتقي بها في الحقيقة ، كانت هي من جاءتني في حلمي ، سبحان الله ! تتابع المواقف التي أعجز عن تفسيرها ، ولا أملك سوى أن أقر بعظمتك وقدرتك يا إلهي . حقاً لا يعجزك شيء ولا يستطيع كائن من كان أن يقف أمام إرادتك ، وهذا هو ظني بك يا حبيبي » .

* * *

وهناك في منزل الحاج صابر كان الجميع في انتظار التقرير الذي ستأتي به حنان التي وصلت لتوّها من الجامعة وبالكاد تلتقط أنفاسها .

ـ ها ؟! ما الأخبار ؟

ـ دعيني ألتقط أنفاسي أولاً يا أمي .

ـ تفعلين منذ عشر دقائق ، هيا أخبريني كيف كان اللقاء .

ـ لقد كان لقاء موفقاً يا أمي .

وظلت تقصّ على والدتها معظم الحوار الذي دار بينها وبين زهرة ، ووالداها يصغيان إليها .

ـ وماذا عن شكلها ؟

ـ لا تقلقي ، ستعجبك إذا رأيتها ، ولكن الأمر الذي حيّرني هو أنني لم أستطع تحديد لون عينيها !

* * *

عاد إلى المنزل بعد العمل ، وكان متلهفاً لرؤية ردود أفعال والده ووالدته بعد لقاء أخته بحبيبته ، فوجد ما أثلج فؤاده وأقر عينه .

ـ إذاً ما رأيكِ أن تقومي بزيارتها يا أمي أنت وحنان ومودة لتتعرفي أكثر عليها وعلى أسرتها .

ـ لا مانع عندي ، سأرتب معهما ونقوم بتلك الزيارة في الأسبوع القادم .

رد مندفعاً : بل في هذا الأسبوع يا أمي رجاء .

ـ يا بني كفّ عن عجلتك تلك .

حك رأسه في حرج وقال : ولمَ التباطؤ يا أمي ؟ لا يوجد مبرر للانتظار .

لوّحت بكفّها قائلة بابتسامتها العذبة : آه منك يا ريان ، لم أتوقع أن أرى منك كل هذا .

حك رأسه مجدداً ونظر بعيداً عنها وقال بحرج :

ـ أنا ؟! ! وهل فعلت شيئاً ؟! !

ـ كل هذا ولم تفعل شيئاً ؟

قال متغلباً على حرجه الذي أشعل وجنتيه : المهم ، رتبي مع أختي الزيارة خلال هذا الأسبوع ، اتفقنا ؟

ـ أمري لله .

وبالفعل تم إخبار زهرة بموعد الزيارة في الأسبوع نفسه ، وتمت الزيارة على خير ، شعرت بسعادة كبيرة لأن والدة ريان امرأة طيبة القلب ، تعاملت معها كأنها تعرفها منذ زمن ، وكذلك أخته مودة هي أيضاً لا تقلّ شأناً عن أمها وأختها .

رجعت أم ريان منتشية فاستقبلها ريان ليعرف ما أثمرته تلك الزيارة وقال :

ـ ها يا أمي ، ما الأخبار ؟

جلست أم ريان على الأريكة وخلعت خمارها وقالت :

ـ أمهلني ريثما ألتقط أنفاسي يا بني .

وفور انتهائها من جملتها قال : هل التقطتِها ؟ هيا أخبريني عن رأيك فيها .

نظرت له ضاحكة وقالت :

ـ لن تغير عادتك تلك أبداً .

ـ أعدك سأفكر في الأمر ، هيا يا أمي تكلمي .

ـ هم أناس طيبون ، ووالدتها اجتماعية من الدرجة الأولى .

ـ وما رأيك في زهرة ؟

ـ على أساس أن رأيي سيغير شيئاً ؟

حك ريان رأسه بسبابته وقال ضاحكاً :

ـ أخبريني من باب العلم بالشيء .

ضحكت الأم وقالت :

ـ قل لي أولاً ، ما لون عينيها ؟

ـ أعدك إن عرفته سأخبرك !

ضحك والداه فاستغل هذا وقال :

ـ لم يتبقَّ سوى زيارتك أنت أيضاً يا أبي ، ولا تقل لي الأسبوع القادم ، الجمعة الآتية مباشرة سنذهب معاً إليها ، قصدي إلى بيت والدها !!

* * *

كانت تلك الجمعة ممطرة جداً ، وكانت تخشى أن يتم تأجيل الزيارة ، ارتدت ملابسها وظلت تتردد من حين لآخر على شرفة

البيت تنظر علّها تلمح طيف حبيبها ، كانت السماء ملثمة بالسحاب والأمطار تتساقط بلا هوادة ، والقلق يعصر قلبها تخشى أن يصاب حبيبها بمكروه .

« ما أقبح هذا الانتظار ! لا يرحم قلوباً تآكلت ، ولا أرواحاً تهالكت ، تمضي الثواني كالدقائق ، والدقائق كساعات » .

لم يرحمها الانتظار ، ولم تشفق عليها الأمطار ، وكل منهما يكمل ورده بإتقان جفف حلقها وأتعب فؤادها ، حتى لاح لها من بعيد ، فاختفى المطر ، وتلاشى شبح الانتظار . . ها هو قد أتى بعد ساعة من الموعد المحدد ، أتى لينتشلها من فك الانتظار قبل أن ينهش ما تبقى لديها من قوة ، ورغم دخول وقت الغروب إلا أنها شعرت كأن الفجر قد أطل عليها وبأن الشمس سترجع لتشاركها سعادتها . وقفت تتأمل مشيته في الخفاء حتى اقترب جداً ، فتسللت إلى الداخل وقلبها يرقص وجوارحها منتشية ، لطالما انتظرت تلك اللحظة ، أخيراً تقبل الله رجاءها وأذن لها بالراحة ، الحمد لله .

ها هي تجلس بجوار حبيبها للمرة الأولى ولا تخشى ، تتحدث معه ويتحدث معها ، على مرأى ومسمع من أسرتها ، وكان يكفيها أن تسمع منه تلك الكلمات .

ـ لقد كان الطريق موحلاً جداً وصعباً ، ولكنني لم أتراجع بل

واجهت تلك الرياح والأمطار كي لا أتأخر عليك ، لم أكن مستعداً لتغيير موعد الزيارة ، كنت أعد الثواني عداً ، وها أنا معك ، هل وفيت بوعدي ؟

« أجل ، لقد كان طريقه ليصل إليها موحلاً وصعباً ، قابلته الكثير من العقبات ولكنه تجاوزها من أجل حبيبته التي لم تغب عن قلبه ، حبيبته التي استقوى بحبها على كل تلك الصعاب ، حتى برهن لها على صدق حبه ووعوده لها » .

انتهت الزيارة وتم تحديد يوم الجمعة المقبلة للخطبة ، واتفقوا على يوم في منتصف الأسبوع لشراء الذهب .

انتكاسة

وقفت زهرة أمام واجهة بيع الذهب لكنها ليست بمفردها هذه المرة ، ولن تنتقي خاتماً مزيفاً ، بل حبيبها بجوارها يختار معها ذلك الخاتم الذهبي الذي سيستقر في بنصر يمناها .

كانت تنظر بعينيها إلى تلك الخواتم ، ولكن قلبها كان ينظر إلى حبيبها يحدّثه قائلاً :

أحبُّكَ !

أحبُّك بإحساس

وقد عرفتُ الإحساسَ على يديكَ

أحبُّكَ بصَمت

ولا تحسبنَّ صَمتي سوى بَوحٍ إليكَ

أحبُّكَ بهَمس

وهل تَسمَع هَمساتي حينَ أَتلوها عليكَ ؟

أحبكَ بنار

وليتَكَ تبصِر نارَ أَشواقي إليكَ

أحبكَ برَبيع

وما أجملَ الرَّبيع حين أراهُ في عينيكَ

أحبكَ بصَيف

فأنتَ الشمسُ تدفِّئ لي حياتي

أحبكَ بخَريف

حين تَسقطُ في حبِّكَ كَلماتي

أحبكَ بِشِتاء

حين تُمطـرُ حنيناً إليكَ دَمعاتي

أحبُّكَ بِابتِسامَه

وليتكَ تَدري أَسرارَ ابتِساماتي

أحبكَ بِسُكون

وإنْ ترنَّمتْ من حبّكَ كَلماتي

أحبُّكَ بنَقاء

وما للنَّقاءِ دربُ سِواكَ

أحبكَ بتضحِيَه

فَرُوحي وعُمري وما مَلَكتْ فِداكَ

أحبكَ بكلِّ لغاتِ العالَم

فليسَ لي عالمٌ إلاَّكَ

أحبكَ باعتِذار

فكلُّ ما وصفتُ عَجَزَ عن وَصفي هَواكَ

* * *

لقد انتظرت وتحملت الكثير من أجل تلك اللحظة ، لقد شهدت الليالي على حبها الصامت ، وعشقها الصامد ، لقد رفعت إلى الله نجواها وتوسلت إليه كي يجمع بينها وبين حبيبها الذي رغم أنها لم تره إلا أن روحها تعلقت به ، لقد رآه قلبها قبل عينيها فهام به .

وتمت الخطبة في منزل والدها ، ووقفت في حجرة الاستقبال تتلقى التهاني وعن شمالها حبيبها في بذلته التي أضفت عليه وسامة

من نوع خاص . وها هي تتجه نحوهما فتحتضن أخوها ثم تلتفت إليها وتقول لها :

ـ مبارك يا حبيبتي (وتحتضنها) .

أجل ليس حلماً هذه المرة ، ولن تسقط من أعلى لتصطدم بفراشها ، بل سترتقي بها السعادة لأعلى وتحلق بقلبها وروحها وسط تلك الأطيار المغردة تنشد معهن قصة حبها ، فتردد الأطيار خلفها ويعرف العالم كله أن الزهرة قد ارتوت ، وأزهرت على يد ريان .

* * *

ـ صباح الخير .

ـ صباح النور .

ـ كيف حالك اليوم يا غاليتي ؟

ـ بخير الحمد لله ، ظننتك ستنسى الاتصال بي اليوم .

ـ لماذا ؟!

ـ بسبب مشاغلك .

ـ كيف أنشغل عنك ؟ أنا أنشغل بك أنتِ .

ـ أخشى أن أعتاد على هذا ثم تتغير مع الأيام .

ـ أنا أتعامل معك بطبيعتي، اطمئني لن أتغير إلا إذا تغيرت أنتِ.

ـ أنا أتغير ؟ مستحيل .

* * *

ـ ما بك يا زهرتي ؟

ـ لا شيء .

ـ كيف لا شيء ؟ أنت متعبة أليس كذلك ؟

ـ تعب بسيط وسأكون بخير ، لا تقلق .

ـ بل أقلق ، ما بك ؟ بماذا تشعرين ؟

ـ صدقني أنا بخير ، مجرد ألم بسيط وسينتهي .

ـ هل تكرر الألم نفسه ؟

ـ أجل ، وسيذهب ككل مرة .

ـ لا ، بل ستذهبين إلى الطبيب هذه المرة .

ـ لا داعي ، صدقني .

ـ بل هناك داع ، وستفعلين ما أطلبه إن كنتِ تُحبِّينني ، وإلا أغلقت الهاتف وجئتك في الحال .

* * *

ـ ماذا ؟! جراحة ؟

ـ بسيطة ، لا تقلق علي .

ـ حتى وإن كانت ، سأصحبك وقت الجراحة كي أطمئن عليك .

ـ حسناً .

* * *

جلس أمام الشاطئ مهموماً وكأن الكون ضاق به ، لقد عجز عن مرافقتها وقت إجراء الجراحة لأنه أجنبي عنها ، لم يشعر بمرارة هذا الوصف قبل اليوم ، منع من المكوث بقربها رغم توسلات عينيها له أن يصاحبها ، لم يجد بداً من مغادرتها ، فذهب إلى أقرب مكان منها وهو الشاطئ يدعو الله لها بالشفاء . بينما هي ظلت تبكي لتركه إياها وهي في أشد الاحتياج إليه ، فهو مصدر الأمان لها ، كيف يتركها ويذهب ؟! ظلت تبكي حتى دخلت حجرة العمليات ، فغابت عن الوعي ، ولكن قلبها ظل مستيقظاً يناديه . مر الوقت ثقيلاً حتى أنهك جسده فعاد إلى بيته حزيناً يتألم ، أما هي فقد بدأت تستعيد وعيها فكان هو أول من نادى لسانها ، ظلت تناديه حتى أشفقت عليها أمها فهاتفته وطلبت منه أن يأتي لرؤيتها ، فأسرع وقطع الكيلومترات التي تفصلهما ، دخل عليها ومعه أمه ، فجلست بعناء

وظلت تنظر إليه وقد عجزت عن الكلام ، وهو ينظر إليها وكأنه يعتذر لها عن تركه إياها .

« ما أصعبه من شعور أن يكون أحب الناس إليك محرم عليه البقاء معك في أصعب الأوقات » .

* * *

تماثلت للشفاء وقررت أن تسعده بهدية خاصة لا تكون إلا له ، ظلت تبحث وتبحث حتى جاءتها الفكرة فعكفت على تنفيذها دون أن تشعره أنها تخطط لشيء ما ، وظلت تضبط المفاجأة مرات ومرات ، هذه المرة الأولى التي تفعل هذا ، ترى هل ستعجبه ؟

اقترب موعد مجيئه إليها فارتدت ثيابها ووضعت حجابها وجلست تنتظره بشوق عارم ، تنظر إلى المفاجأة فيطرب فؤادها وخاصة بعدما أثنى عليها والدها وأمها وأخواها ، لقد أدهشت الجميع بها . ودق جرس الباب معلناً حضور الحبيب ، فتحركت بتأنٍّ يستر اندفاع قلبها وروحها ، استقبلته بابتسامتها الهادئة ونظراتها العاشقة وكلماتها المعدودة ، ليته يشعر بما تستره عنه ، وليت الوضع يتغير كي تطلعه على ما يعجّ به صدرها .

استقبلته الأسرة بالترحاب والسرور وخاصة أمها ، هي أيضاً أحبته بشدة لحسن عشرته ، وباتت تنتظره كما ابنتها ، تشعر أحياناً

بالغيرة عليه من أمها ومن أخواته ومن نساء حواء جميعاً . وبعد الترحاب توجه نحو حجرة الاستقبال المفتوحة على الصالة ، جلست على مقربة منه وقد أشعل الخجل والشوق وجنتيها ، نقيضان يفتكان بها ، هو أيضاً مشتاق لرؤيتها ويعد الأيام عداً كي يأتي يوم الجمعة فيراها ، تفضحه عيناه أمامها فيزداد حياؤها . بعد قليل دخلت وجلست أمها ، فاستأذنته وتوجهت إلى حجرتها وأحضرت دفتر الرسم الخاص بها ووضعته أمامه كي تطلعه للمرة الأولى على رسمها ، فأمسك الدفتر بحب وكأنه يمسك كفها هي ، وأخذ يقلبه صفحة صفحة ويثني على رسمها الذي لم يكن يعرف أنها تتقنه هكذا وفجأة قال :

ـ أنا !! !! !

ضحكت أمها التي كانت تراقبه لتشاهد ردة فعله عندما يرى صورته في دفتر ابنتها ، وضحكت ابنتها فقال :

ـ يشبهني تماماً ، كيف ومتى فعلتها ؟

ـ أرسمها منذ يومين حتى وصلت إلى الشكل النهائي .

ـ رائعة ، حقاً رائعة !

وظل ينظر إلى رسمتها له وقلبه يخفق ، لقد وفقت في رسمه تماماً ، أطلق إليها نظرة شكر سريعة محملة بمشاعره الرقيقة حرجاً من أمها التي تتابعه مسرورة أن ابنتها قد أسعدته لهذه الدرجة ،

تعترف من داخلها أن ابنتها كانت محقة حينما أحبته ، الكل يعترف أنها قد أحسنت الاختيار ، ما زالت الدنيا بخير طالما هو فيها .

ـ للعلم ريان ، هذه المرة الأولى التي أرسم فيها بألوان زيتية .

ـ فعلاً ؟!

ـ أجل .

ـ المرة الأولى ويبدو بذلك الإتقان ؟

نظرت مبتسمة إليه ولم تتكلم ، لقد رسمته بقلبها ، كيف لا يكون بهذا الإتقان ؟!

* * *

« حبيب الروح ، دواء الجروح ، هل تعلم من أنت بالنسبة لي ؟ أنت الهواء لأنفاسي ، أنت الحياة لجسدي ، أنت قِبلة عشقي ، أحبك ، وليتني أستطيع البوح لك ، سامحني إن بدا لك مني غير ذلك ، سامحني » .

* * *

استيقظ من نومه بعد ليلة تفكير صرفت عنه النوم ، أمسك هاتفه ونظر فيه فتمكن الغضب منه ، وقال :

ـ ألهذه الدرجة يا زهرة ؟ . لماذا تفعلين كل هذا ؟ . لماذا تبدلت حالتك هكذا ؟ . ما ذنبي لأستحق منك هذا العقاب ؟

ثم رفع الغطاء عنه بغضب ، وقام فغسل وجهه ثم ارتدى ملابسه وهمّ بالانصراف .

ـ صباح الخير يا بني .

ـ صباح الخير يا أمي .

ـ هل ستغادر مبكراً هكذا ؟

ـ أجل ، بالكاد أصل في موعدي .

ـ حسناً سأعد لك الفطور حالاً .

ـ لا يا أمي ، سأتناوله لاحقاً في العمل .

نظرت له والدته بتعجب وقالت :

ـ هل أنت بخير يا بني ؟

ـ أجل ، لا تقلقي .

ـ هل حدث شيء بينك وبين زهرة ؟

ـ لا ، لم يحدث شيء .

انصرف ريان من المنزل وهو في ضيق شديد ، تتوارد على فكره عشرات الأسئلة التي لم يجد لها إجابات مقنعة ، وبعد ساعة تقريباً وصل إلى المكتب ، وكالعادة وجد صديقه باسماً قد وصل قبله .

ـ معقول ! جئت مبكراً اليوم أيضاً ؟ لا هذا غير طبيعي .

جلس ريان على مكتبه بوجه متجهم وقال باقتضاب :

ـ صباح الخير يا باسم .

نظر إليه باسم متعجباً ثم قام من مكتبه وتوجه نحوه قائلاً :

ـ هل أنت بخير يا صديقي ؟ حالتك لا تعجبني منذ يومين .

وضع ريان وجهه بين كفيه وقال بنبرة حزينة :

ـ لست أدري يا باسم ، لست أدري .

اقترب باسم منه أكثر وضمه بذراعه وقال بحنوّ :

ـ ما الذي حدث ؟

ـ كان كل شيء يسير على ما يرام منذ خطبتها ، وفجأة تبدل حالها ، وجف حديثها معي ، ولم أعد أشعر بلهفتها للتحدث معي ، صارت تخاطبني باقتضاب .

ـ ربما صدر منك قول أو فعل ضايقها .

ـ لقد أجهدني التفكير في هذا الفرض ولم أصل إلى نتيجة مقنعة .

ـ ولماذا لم تسألها ؟

رفع ريان يديه عن وجهه بانفعال وقال :

ـ لقد فعلت ، ولم تجب عن سؤالي .

ـ غريبة !

ـ أكاد أجن يا أخي ، أكاد أجن ، معقول هذه هي حبيبتي التي تحملت كل تلك الضغوط من أجلها ، معقول تتبدل حالتها هكذا ؟

ومر اليوم كئيباً ، حتى لم يستطع التركيز في عمله ، كان يطالع هاتفه من حين لآخر ثم يعيده إلى جيبه وقد خاب رجاؤه في أن يجد منها أي اتصال ، عاد إلى بيته والتعب جلياً على وجهه فلاحظ ذلك والده فقال له :

ـ ما الأمر يا بني ؟

ـ لا شيء يا أبي .

ـ بل هناك شيء ، ألا ترى كيف تبدو .

ـ صدقني يا أبي ، لا شيء .

ـ هل أنت على خلاف مع زهرة ؟

ـ الأمر بسيط يا أبي ، لا يستحق أن أتحدث فيه .

ـ هل أنت متأكد ؟

ـ أجل .

استأذن من والده ودخل حجرته فألقى بجسده على الفراش لعل جسده يجد الراحة التي حرمت منها روحه في الأيام الماضية ، سمع

صوت هاتفه يعلن عن وصول رسالة ، فأخرجه سريعاً من جيبه ونظر إليه فوجدها رسالة من حبيبته فتهلل وقال :

ـ أخيراً ، أخيراً تذكرتِ أن هناك من ينتظر منك سؤالاً عنه ؟

فتح الرسالة وما أن قرأها حتى أصبح كبركان ثار لتوّه ، وبدون تفكير اتصل بها .

ـ السلام عليكم .

كان سماع صوتها كافياً لينفجر ذلك البركان فيها ، فأصابتها حممه وتجهمت ملامحها ، وتعارضت ضربات قلبها وهي تستمع إليه :

ـ لماذا كل هذا ؟ هل ظل هناك من لم تخبريه بحالتك تلك ؟ لماذا أرسلت تلك الرسالة لهبة والتي وصلتني بالخطأ ؟ . . . لماذا كل هذا الجفاء ؟ . . . هل أخطأت في حقك أو أسأت إليك ؟ كل يوم أقول لنفسي ربما أتوهم ، ربما هي ليست بخير وستتحسن قريباً دون فائدة . . . يمر اليوم ولا يأتيني منك اتصال ، وإن اتصلت تتحدثين بإيجاز وسرعان ما تنهي المكالمة . . . أخبريني خطئي علّني أصلح من نفسي .

كانت تستمع إليه وهي تكتم شهقاتها كي لا يسمعها هو أو أي فرد من أسرتها المنشغلين في الحديث خارج حجرتها المغلقة ،

لا أحد يعلم شيئاً عن خلافاتها معه ، لقد تعاهدا على ذلك منذ أول خطبتهما ، لذلك لم يلاحظ أحدهم أنها لديها مشكلة ما معه ، ظلت تبكي وتبكي حتى أفصح نحيبها عن نفسه وصرخت في الهاتف قائلة :

ـ حسبك ، حسبك ، لقد ذبحتني كلماتك بما يكفي .

انتبه إلى صريخها وشعر بما أحدثته كلماته اللاذعة فيها ، فحاول استعادة هدوئه ، بينما هي تشهق وتتعالى شهقاتها حتى انقطع صوتها .

ـ زهرة ، زهرة ، ردي رجاءً .

عم الصمت على الجانبين وبعد فترة تكلمت بصوت هادر :

ـ أولاً أنا لم أخبر هبة بشيء كما تظن ، فقط كنت أريدها أن تدعو الله أن يصرف عني ما أجد ، وهذا هو نص الرسالة التي وصلتك بالخطأ . . . ثانياً أنا أيضاً أتعذب مثلك تماماً .

هدأت نبرته ورق قلبه لها ، فهو لم يعتد أن يراها في تلك الحالة وقال :

ـ لماذا تتعذبين ؟

شهقت وقالت والدموع على وجنتيها :

ـ لأنني اكتشفت أننا نعصي الله كل تلك الفترة منذ خطبتنا ، لم

أكن أعلم أن حديثي معك عبر الهاتف محرماً ، لم أكن أعلم أنه لا يحق لأحدنا أن يصرح للآخر بحبه ، كل هذا سنعاقب عليه وستنزع البركة من بيتنا بسببه .

جفل من حديثها ومن كلامها ، ارتبك لكنه حاول تهدئتها :

ـ هل هذا هو كل ما في الأمر ؟!

ـ أجل ، ولا تستهين به (قالتها بصوت متهدج) .

ـ لا ، لن أستهين به ، لكنك عالجت المشكلة بالطريقة الخاطئة ، هل ظننت أنني سأعترض ؟ لماذا لم تصارحيني بذلك بدلاً من اجتنابك لي ؟

ـ لم أكن أعرف كيف أوصل لك تلك المعلومة .

ـ أنت مخطئة يا حبـ . . . يا زهرة ، كان يمكنك إخباري بهذا من البداية دون أن تتركيني هكذا فريسة للشيطان يتلاعب بي كيفما يشاء .

ـ ربما أكون كما تقول ، لكنني كل ما كان يشغلني أن أمتنع عن هذا الذنب .

ـ زهرة نحن لم نكن على علم بالحكم الشرعي ، ثم إننا لم نتجاوز الحد ، أنا لم أصافحكِ ، لم أخرج معك بمفردنا ، حتى لم أجلس بجانبك .

قالت بوهن : هذا لا يكفي ، حديثنا عبر الهاتف أيضاً لا يجوز إلا للضرورة .

قال بأسى : وكيف سأطمئن عليكِ ؟

دخلت زهرة بعد هذا السؤال في نوبة بكاء جديدة وظلت تردد :

ـ لا أدري ، لا أدري .

« الطاعة ليست سهلة ، تحتاج مجاهدة وإصراراً وصبراً لا يوفق إليها إلا من لجأ إلى الله بقلب سليم » .

* * *

اتسعت عينا زهرة سروراً وقالت بفضول :

ـ حقاً ! ، رائع .

ـ لا ليس رائعاً أبداً .

ـ لماذا ؟

ردت نهلة بحزن : أبي يرفضه لأنه من محافظة أخرى .

مطت شفتيها بنزق : مشكلة !

ـ لكنني تعلقت به يا زهرة ، لقد وجدت به كل الصفات التي

تمنيتها في شريك حياتي ، وليس عندي أية مشكلة في كونه من محافظة أخرى .

ـ وعلامَ تنوين ؟

ـ لن أتحدث معه مجدداً قبل أن يوافق عليه أبي .

ـ هل هو من الأصدقاء ؟

ـ أجل ، لكن لم ألاحظ حبه لي أبداً قبل أن يفاجئني بطلب الزيارة .

ـ وكيف أحببته ما دام لم يلمح لك حتى من قبل ؟

ـ عندما تحدث معي للمرة الوحيدة اكتشفت أنني كنت أحبه ولا أدري ، كأنه حينما حدثني كشفني أمام نفسي .

ـ مجنونة !

ـ أتمنى أن يقبل أبي به ، لم أعد أرى غيره يا زهرة .

ـ اصبري وتضرعي إلى الله ، فالقلوب ملكه سبحانه ، يقلبها كما يشاء .

ـ هل تتوقعين أن يكرر زيارته لأبي ؟

ـ إن كان يحبك سيفعل .

ـ وما يدريني ، لم يتحدث معي منذ زيارته الأخيرة .

ـ وهذا جيد ، لقد احترم كلام والدك .

ـ لكن للأسف فعلته تلك جعلتني أحبه أكثر وأحترمه أكثر .

ـ انتبهي على أية حال ، وإياك أن تصارحيه بحبك أبداً قبل أوان الأوان .

ـ ادعي الله أن يقدر لي ما أتمناه .

ـ سأفعل حبيبتي ، سأفعل .

ـ وماذا عن ريان ؟ هل تسير الخطبة على ما يرام ؟

ـ أتعلمين ؟ ربما لا يمر علي يوم دونما بكاء .

ـ لماذا !!

ـ لأن الطاعة ليست بالأمر الهين أبداً يا نهلة .

اعتراف

وكعادتها تطل من خلف السحاب كعروس حيية يوم عرسها إذا رُفع عن وجهها ذلك الستر الذي يخبئ الحسن الأخاذ ، فتحمر وجنتاها خجلاً عندما تبصر في عينيه الشوق واللهفة لتلك اللحظة التي طال انتظاره لها ، فتتهلل أسارير السماء وتأذن للأرض بتلك السلاسل الذهبية أن تتساقط عليها لتعلن عن بدء يوم جديد في حياة جديدة .

ـ لقد انتهت القصة .

ـ بل بدأت لتوّها .

ظل ينظر في عينيها التي لم يعرف لهما لوناً بعد ، والتي تتهرب منه كلما أطال النظر فيهما ، وصوت العصافير يعزف حولهما أعذب الألحان ، همس لها قائلاً :

ـ أحبك .

فتورد قلبها ، وازدهرت روحها ، وامتزجا بتلك الحشائش والشجيرات والورود التي تحيط بهما ، وها هو يتخلى عنها كما اعتادت في مثل هذا الموقف ، ولم تجد ذلك الكلام الذي تتقن سرده في غيابه ، والذي يختفي حينما ينظر إلى عينيها ويعترف لها بحبه . أين دفتر اعترافاتها الذي كانت تدوّن فيه مشاعرها التي عجزت عن التصريح بها من قبل ؟ ابتسمت في حياء ، وأشاحت وجهها عنه وقالت :

ـ وأنا أيضاً .

فعدل وجهها إليه ودقق النظر في عينيها مجدداً وقال :

ـ وأنت ماذا ؟

احتقن وجهها ، وتفاقم نبضها ، وحاولت أن تفرّ بعينيها منه ، لكنه قد حبسهما داخل سجن عينيه البنيتين، لم تكتشف لونهما قبل

الآن فلم تجد مفرّاً سوى الاعتراف فقالت بصوت بالكاد يسمعه :

ـ أحبك .

تهلل وجهه واستنشق الهواء بكل قوة وقال :

ـ أخييراً . . . أتعلمين كم تحملت كي أحظى بهذه الكلمة ؟ لقد أتعبتني يا حبيبتي ، لماذا فعلت بي هذا ؟

بدأت تتشجع قليلاً وتتجاذب معه أطراف الحديث من جديد ، ولكن خجلها لم يرحمها :

ـ وماذا فعلتُ بك ؟

ـ كل هذا ولم تفعلي شيئاً ، لقد حولت حياتي إلى سجن .

نظرت بلومٍ إليه وقالت : أنا حولت حياتك إلى سجن !!

ـ أجل فعلت ، لقد ظننت أن معاناتي قد انتهت بمجرد أن صار خاتمي في أصبعك .

نظرت إليه بدلال وقالت :

ـ أنا لم أفعل شيئاً ، نحن فقط طبقنا شرع الله ، كيف كنت سأصارحك بحبي وأنت أجنبي عني .

ـ ألم تفعلي في أول الأمر ؟

قالت بحرج مزج بضيق وتأنيب ضمير : أجل فعلت لأنني كنت

أجهل الحكم الشرعي في ذلك ، الفكرة السائدة في المجتمع أن الخطبة تبيح المحادثات الهاتفية ، وتبيح مصارحة كل طرف بحبه ، وأحياناً يزيد البعض عن ذلك ولا تجد من ينكر هذا إلا من رحم ربي .

ـ حتى أنا كنت أجهل ذلك أيضاً ، ولكن أبى الله أن نظل على جهلنا .

ـ أجل

نظرت إلى السماء وقالت بحنو :

ـ وعلى هذا تعودت من ربي .

ثم أعادت نظرها إليه وقالت :

ـ أنا لست معصومة عن الخطأ ، ولكن الله دائماً يسبب الأسباب كي أتراجع عن خطئي ، فأرسل إلي أولاً المعلمة التي فطنتني أن تلك الخطوبة ليست إلا وعد بالزواج ولا تحلل أي شيء بيننا ، ثم أسمع ذلك الشيخ يقول أن المخالفات الشرعية في فترة الخطوبة هي السبب في نزع البركة والحب من البيت بعد الزواج ، وهذا أرعبني ، أنا أتمنى أن يظل حبك لي طوال العمر ، وها هو الله قد كافأنا ويسر عقد قراننا بعدها بزمن بسيط .

احتضن كفها بحنان شديد وقال :

ـ أتعلمين ؟! لقد زادت مكانتك في قلبي أكثر وأكثر عندما طلبت مني أن نتجنب تلك المخالفات ، رغم أنني تفاجأت بها وكان من الصعب ألا ألمّح لك حتى بحبي إلا أنني أدركت أنني كنت محقاً عندما وقع اختياري عليك ، كنت دائماً أبحث عمّن تأخذ بيدي وتشد بأزري إلى طاعة الله ، وها أنت قد فعلتِ .

تذكرتْ فجأة فسحبت كفها من بين يديه في حياء وقالت :

ـ صحيح ، كيف اقتنع والدك بي رغم أنني لست طبيبة أو مهندسة ؟

رد مستنكراً : وما المشكلة ؟! أبي أصلاً لم يعترض على شهادتك ، كان كل اعتراضه أن الوقت ليس مناسباً .

صمتت زهرة بعدما سمعت رده هذا الذي فاجأها به ، وفطنت إلى أن تلك كانت طريقة ماجدة التي استخدمتها لتبرر سبب عدم تمكنه من خطبتها لأنها لم ترد الخوض في تفاصيل تخصه .

ـ عندي سؤال .

ـ تفضل .

ـ كيف تتعلقين هكذا بهبة وتربطين مصيرك بها ؟

ألصقت ظهرها بجذع الشجرة التي يجلسان تحتها وقالت متنهدة :

ـ صدقني لست أدري ، ربما أردت إثبات وفائي لها ، وربما هي إرادة الله التي تحكمت بي وجعلتني أفكر هكذا لأكون لك .

ـ أتعلمين ! أنت حالة استثنائية ! لا أعتقد أن هناك من يشبهك .

ـ بل أنا فتاة عادية ، كل ما في الأمر أنني إذا أحببت أصدق ، وإذا صدقت وفيت ، والحب ليس حكراً على ذلك الذي بين الرجل والمرأة ، هناك الحب في الله الذي إن ترأس أي صداقة أنارها وأدامها ، وأنا أحببت نهلة وسارة وهبة ، وغيرهن من باقي زميلاتي ، وأرجو ألا أُحرم من صحبتهن أبداً .

نظر في عينيها نظرة حب أذابتها وهمس لها :

ـ وأنا ؟!

ابتسمت في هدوء وتجرأت هذه المرة ونظرت هي في عينيه قائلة :

ـ أنت !! ، أنت إكسير الحياة بالنسبة لي ، أنت من أحدث بداخلي ثباتاً انفعالياً ، أو قل رمانة ميزان قلبي .

ـ لماذا أحببتني ؟

بابتسامة رقيقة تنحنحت استعداداً لتغني ، وبصوت حنون قالت :

أَتَـدْرِي لمَـاذا مَلكـتَ الفُـؤادْ وصـرْتَ حيـاتي وأغلَـى قَـدَرْ

أتـدَري لِمـاذَا شَغَلـتَ الخَيـالْ فَصِـرْتَ المَـلاذَ لكـل الفكـرْ
أتَدْري لمَاذا صَحبْتُ النجوُمْ فأمْسِي وَقَدْ غارَ مِنكَ القمرْ
أتـدْري لمَـاذا عَـرِفـتُ السُّهـاد وبَعْـدَ لقـاكَ عشِقْـتُ السَّهَـرْ
أتَـدْرِي لِمَـاذا يَطِيـبُ الكـلامْ إذا أحْكِي عَنكَ ويَحْلو السَّمرْ
أتَـدْرِي لِمَـاذا احْتكـرْتَ البَيَـانْ فَـأصْبَحَ شِعْـرِي كـوَقـع الـدُّرَرْ
لأنـكَ وَحـدَكَ دُونَ الـرِّجَـالْ قهَـرْتَ المُحَـال وَلِـي قَـدْ عَبَرْ
ولَـمْ تلـقِ بـالاً لأي حُصُـونْ وَمِنْ أَجْلِ قُرْبِي هَزَمْتَ الخَطرْ
لذا سَوفَ أحْكِي بطولِ الزمَانْ بـأنـكَ حُبـي وأغلـى البشـرْ
ولـو أنـتَ تقسُـو علـيَّ فلـنْ أقـولَ سِـوى قلبيـا قـدْ غفـرْ
ومَهْمَـا تطـولُ علينـا السُّنـونْ ستلقـى الغَـرَامَ بصَـدْرِي نَهَـرْ

احتضنها بعينيه وقال بنبرته الحانية :

ـ كل هذا ! لماذا ؟

نظرت بعشق وقد تلألأت عيناها الخضراوين وقالت :

ـ أحببتك لأنني (فيك وجدت ضـالَّتي)

تمت بحمد الله

المحتوى

زهرة 5

نهلة 14

تقلبات 33

سارة 53

المعسكر 63

فلتنس ما فات 81

محطات 101

حدث غريب 119

ريان 140

مجرد كابوس 157

ألم الانتظار 170

أول خطوة 187

للقلب أحكام 199

خطوة فاصلة 220

انتكاسة 241
اعتراف 258
المحتوى 265